الفصل الأول

في استعمال العقل في الامور الدينية

ان لجميع الناس حقًّا في استعمال عقولهم في الامور الدينية ووجوب ذلك امرٌ ظاهرٌ لا يُرتاب فيهِ. فانهُ بدون استعمال العقل لا يمكن ان تقوم الديانة. لان ذلك ضروريٌّ في كل درجة من البحث في ادلَّة الوحي وتفسير معانيهِ وقبول تعاليمهِ. وذلك على انه متى تقدمت للناس دلايل الديانة المسيحية تُرفَع دعوى حقيقتها الى عقولهم. فتكون الدلايل والبراهين باطلة ان لم يُسمَح للعقل بالحكم على صحتها. ولا ريب ان هذه الموهبة الشريفة قد أُعطِيَت للانسان دليلاً في الدين كما هي دليلٌ لهُ في سايرالامور. اذ ليس لهُ واسطة اخرى يستطيع بها ان يحكم على قضيةٍ ما او يقبل حقيقةً من الحقايق. وكون النظر بلا اعينٍ ليس باقرب الى المحال من معرفة الحقايق بدون استعمال العقل. واذا كان ذلك كذلك فقد فسد زعم من يزعم ان الديانة ترفض استعمال العقل في حقايقها. بل هي بعكس ذلك تامر باستعمالهِ كالتزامٍ من اعظم الالتزامات الادبية

وتوجب اثمًا على الذين لا يحكمون لانفسهم بين الحق والباطل هذا وان بعض المؤمنين بالكتب الموحى بها وان سلموا بان للعقل حقًّا في فحص ادلَّتها والحكم على معنى عباراتها قد انكروا حقهُ في القضاء على ذات تعاليمها. ولكننا لا نظن هذا الرأي صحيحًا. لانهُ من الواضح اننا لا نستطيع ان نتصور شيئًا من الحقايق بدون استعمال العقل. واذا قبلنا قضيةً ما بناءً على انها حقيقية فمهما كانت ادلَّة صحتها لا بد ان نحسب قبولها موافقًا للعقل. ان بين الحق والعقل اتصالاً شديدًا حتى لا يمكن انفصالهما الا عنفًا. فالحق هو الموضوع والعقل هو القوة التي بها يُدرَك الموضوع كيفما كان نوعهُ او نوع الدليل الذي يقوم بهِ. والتعليم الذي لا يكون قبولهُ اكثر موافقةً للعقل من رفضهِ لا يمكن ان يكون موضوعًا جديرًا بايماننا. فان ادُّعِي بان كتابًا قد أُوحِي بهِ ثم وُجِد فيهِ تعاليم لا توافق العقل السليم بوجهٍ من الاوجه فذلك دليلٌ ثابتٌ على ان هذه الدعوى ليس لها ركنٌ وطيد ومن الواجب رفضها

ولكن اشتمال الوحي على تعاليم سرية فايقة الادراك ومخالفة لكل تصوراتنا السابقة وبعيدة في ذاتها عن اوهامنا ليس بمضادٍ للعقل. بل انما بعكس ذلك ان العقل السليم ينتظر وجود مثل هذه الاشياء في وحيٍ من الله. لان كل ما يتعلق بهذا الاله الغير المحدود لا بد من كونهِ فايقًا ادراكنا على

نوعٍ ما وكل حقيقة مستحدثة لابد ان تكون مخلفة عما كان معروفًا من قبل . وجميع طرق الله واعمالهِ بعيدةٌ جدًّا ومرتفعة كثيرًا عن ادراك عقولنا . فاننا نرى في الديانة الطبيعية غوامض ليست اقلَّ عظمةً من غوامض الوحي ولا يوجد بين حقايق الوحي والعقل الانساني مخالفة اعظم مما نرى بين حالة الكون الحاضرة وما كان يخترعهُ الانسان لهُ . فكما ان تصديق حواسنا مطابق للعقل كذلك يطابق العقل ايضًا ان نومن بما اعلن الله حقيقتهُ لنا

فاذن في قبول اعظم غوامض الوحي تنتهي الدعوى الى حكم العقل . لالاجل الحكم على امكان كشفهِ تلك الحقايق بذاتهِ ولا على كونها قريبة او بعيدة باعتبارها في نفسها . بل لاجل الحكم على ايّ الامرين هو اكثر مطابقةً للعقل أهو تصديق قولهِ تعالى ام الاعتماد على ادراكنا القاصر . ومَثَل ذلك مَثَل رجلٍ غبيٍّ اذا سمع رجلاً عالمًا يقول ان دوران الشمس اليومي انما هو بحسب الظاهر فقط لا في الحقيقة او ان الشمس في الشتاء تكون اقرب الى الارض مما تكون في الصيف . فانهُ ولو لاح لهُ ان ذلك مضادٌّ للحواس لكنهُ يوافق العقل ان يسلّم لمن لهُ معرفةٌ بهذا الموضوع وممن يمكن الاعتماد على صدقهِ . واذا قبلنا شهادة البشر في الامور التي تفوق اطوار عقولنا فبالاحرى ان نقبل شهادة الله العليم بكل شي الذي لا يمكن ان يغشَّ خليقتهُ

باقوالٍ كاذبة

انهُ لا يوجد سببٌ كافٍ للخوف من الضلال في استقامة استعمال العقل في اي موضوعٍ يعرض علينا . بل الخطر الذي علينا انما هو من جرَى استعمال العقل على غير الاستقامة . وما اشدَّ ميل طبيعتنا الى السقوط في هذا الخطر . فاننا نرى اكثر الناس يدَّعون بان العقل هو دليلهم في عقد آرائهم ولكن هذا الدليل عندهم اعمى منحرف . لانهُ لو كان صحيحًا مستقيمًا لما امتلأَ العالم ضلالةً ولا اشتهرت كثرة الآراء الكاذبة المخطرة ولا حُومِي عنها بكل عنادٍ كما هو الواقع

ان بعض الناس من نظرٍ قليل الى امور الديانة من ظاهرها يبادرون الى نتيجةٍ لابد ان تضرهم ضررًا بليغًا . وذلك انهم يرون في الاعصر القديمة والحديثة كثيرًا من الخرافات والغشوش واختلاف الآراء وتنوُّع المذاهب والدعاوي الباطلة بالوحي من الله والاخبار عن عجايب كاذبة واقوال نبوية لاصحة لها . ثم بدون ان يفحصوا عن الحق باجتهادٍ بين مخاصمات هذه الدعاوي المختلفة يستنتجون نتيجةً عامة ان جميع الاديان هي على حدٍّ سوى وان الامر باجمعهِ زورٌ قد اخترعهُ اناس خُبثاء وغرَّوا بهِ الجمهور العديم التأمُّل وان الدعوى بالوحي الالهي باطلةٌ على الاطلاق لاتستحق البحث عنها . فهل يهدينا العقل السليم الى نتيجةٍ مثل هذه . انهُ لو سلكنا هذا الطريق في بقية

الامور لانقلبت امور العالم باسره في حالةٍ يُرثَى لها . وعلى هذا المنوال يُطرَح الحق والصدق والشرف كاسماء بلا مسميات . لان هذه جميعها قد تقلدت كذبًا مرارًا لا تحصى ولا نهاية لاختلاف الآراء فيها

ومن الناس ايضًا مَن يعتنون بامر الدين اكثر من الذين سبقت الاشارة اليهم وهم يدَّعون بانهم يخضعون للعقل ولكن عقولهم قضاة ظلم . لانهم يميلون اذانهم بكل اصغاء الى ما يقال ضد الوحي ويقرأون بكل رغبةٍ ما كُتِب ضد الديانة المسيحية ويحتفظون بحرصٍ على كل ما يُعترَض بهِ عليها بدون التفاتٍ الى الذين يحامون عنها ولا يسألون اصلاً عن هذه البراهين والاعتراضات التي تتراءى لهم انها وطيدة هل لا يوجد من الرد عليها ما ينقضها . ولذلك يثبتون على كفرهم اشد الثبات مع امكان الحصول على ما كانوا يقتنعون بهِ لو شاءوا . وما داموا على هذا الفحص المنحرف فلابد ان يبقوا في ظلامهم

ومن الناس ايضًا نوعٌ ثالث وهم الذين يدَّعون بانهم تابعون لهداية العقل وهم تحت سلطة الاخلاق الردية كطلب المجد والبخل والشهوة والانتقام . والذين هم على هذه الصفات مهما كانت عقولهم ثاقبة ومعرفتهم واسعة لا يمكن ان يحكموا بالانصاف في ما يصدهم عن التمتع بشهواتهم الغالبة . وبما ان الدين ينهي عن جميع الشهوات الردية والتمتعات الرذيلة تحت

التهديد بالعقوبات الصارمة يطاردونه ببغضةٍ خبيثة . وهم كما قال بعض الفضلاء يقاومون الدين لان الدين يقاومهم . فان مثل هولاء ليس من شانهم ان ينظروا الى الديانة نظرًا هاديًا ولا يمكنهم الانتفاع ببراهين من يحامي عنها . فلا يفتكرون في الدين الا بروح العداوة ولا يتكلمون فيهِ الا بالهزء والشتيمة . وليس شيءٌ احبَّ اليهم من ان يستأصلوا جميع احكام الديانة من عقول الناس ويعدموها من العالم حتى لا يبقى لها اثرٌ يعذب ضمايرهم . وقد استحق فولتير الشهير ان يُدعَى رئيسًا لهذه الطايفة . وما اكثر الذين اقتدوا بهِ في بلاد المسيحيين

ثم انهُ يوجد نوعٌ اخر من الناس الذين اشتهروا بالعقل اكثر من الذين ذكرناهم وهم المرتابون في جميع الحقايق الذين ارآوهم مُغشَّاة بغمامةٍ كثيفة من غوامض المعقولات وهم يلقون شكًّا على اوليات الامور ويشوّشون عقول السامعين لهم بابتداع رسومٍ مخالفة للمشهورات . وربما يصدر منهم ضرر اكثر من اوليك وان كانوا قليلين في العدد . لان غيرهم من اعداء الحق لا يُرَى فيهم العقل الثاقب الا نادرًا واما هولاء الفلاسفة فهم ارباب خبرةٍ في جميع فنون الكلام حتى يُرَى بين ايديهم الفاسد صحيحًا والغلط صوابًا ولو سلمنا لوساوسهم لشككونا ليس بالوحي فقط بل بشهادة حواسنا وبنفس وجودنا ايضًا . وهذا الريب يلقونه على كل شيء باتخاذهم مقدماتٍ لاقيستهم من مبادئ

فاسدة وبحكم سفسطيٍّ على مبادئ صحيحة وباستعمال عبارات مبهمة عن حذاقةٍ كلية وبتجاوز حدود المعرفة الانسانية في البحث . واما مقصودهم بذلك فلا يسهل الحكم عليه ولكن الارجح انه المجد الباطل . ولاجل ذلك يرغبون ان يُظهروا انهم اعلم واحذق من غيرهم . ومن المعلوم ان تحصيل الشهرة في سلوك طريقٍ غير مطروق اهون من تحصيلها في سلوك الطريق الاعتيادي . ولا يمكن ان تكون علة عملهم اعتبار الحق لان الحق والعقل بحسب مبادئهم على حدٍّ سوى في عدم المنفعة . فليس للحق عدو اعظم من هذه الطايفة . وانهُ لامرٌ يُرثَى لهُ ان بعض الاحداث الحاذقين قد يسقطون في فخاخ هولاء الفلاسفة وهم يتورطون اكثر فاكثر في حماة ضلالتهم حتى لايكادوا يخرجون منها فينقطع الى الابد الرجاء بانهم يصيرون اتقياء ويفيدون الاخرين

وقبل انهاء الكلام في الذين يدَّعون بان العقل دليلهم مع عدم استقامتهم في استعمالهِ يجب ذكر نوعٍ اخر وهم من المشهورين بالعلم والحذاقة الذين يدَّعون بقبول الوحي المسيحي ويفتخرون بتسمية انفسهم مسيحيين عقلاء . ولهم مبدأ حميد صحيح ان أُخذ على استقامتهِ وهو انهُ لا يجب قبول شي على انهُ حقٌّ الا ما تستحسنهُ عقولهم . ولكن مع حسن خضوعهم الظاهر لما يطابق العقل يحكَم عليهم بمخالفتهِ مخالفةً لا يُتصوَّر اعظم منها بمناقضتهم

لمباديهم اكثر ممن تقدم ذكرهم . لانهم مع تسليمهم بان الناس قد اتاهم اعلانٌ من ربهم لا يرضون الا بعرض الحقايق المُوحَى بها على العقل البشري ورفضها ان لم توافق هذا القياس . ولا يعتبرون ان كون الامر مُوحًى بهِ من الله هو السبب الاعظم لقبولهِ والايمان بهِ . فلا ريب ان اقامة ارآينا ضد تعاليم من الله معلنة اعلانًا واضحًا يُعَدُّ جسارة ليس اعظم منها . ولكن ربما لم يكن الامر في الحقيقة كما ذكرناه ولا يوجد من يُتهَم حقًّا بمخالفة مباديهِ هكذا حتى يسلّم باشتمال الوحي على قضيةٍ بدون ريبٍ ثم يرفضها . فحقيقة رايهم تكون ان الكتب المقدسة محتوية على وحيٍ من الله ولكن يوجد فيها اشياء كثيرة اذا أُخِذَت على اظهر معانيها تكون مناقضة للعقل ومن حيث ان ما كان مخالفًا للعقل لا يمكن ان يكون من الله يلزم ان ذلك المعنى لا يمكن ان يكون معنى الكتب المقدسة الحقيقي . وبناء على ذلك تشتغل فطنتهم ويُغتصَب علمهم لاختراع معنى اخر وللمحاماة عنه . فعلى هذه المبادي يومن الانسان بما يشاء من الكتاب المقدس ويرفض ما يشاء اذ لم توجد آيةٌ تقوى على جميع طرايق المعالجة التي اختُرِعت لتحريفها . واما هذا العمل جميعهُ فهو مضاد للعقل السليم . والطريق الصريحة التي يرشدنا العقل اليها هي اننا بعد فحص ادلة الوحي والاقتناع بصحتها نتقدم الى تفسير الكتب المقدسة بعقلٍ خالٍ من الاغراض ونستخرج معنى عباراتها

المتنوعة باستعمال حكمٍ سليم وبمساعدة الوسايط والضوابط التي يرشدنا اليها العقل والاختبار. وذلك المعنى ولو كان مضادًا لارآينا السابقة او مناقضًا لاهوآينا فيجب علينا قبولهُ بكل خضوعٍ. ولا يجوز اننا بواسطة حذاقةٍ ثاقبة وعملٍ مدققٍ نستخرج معنى يوافق اوهامنا. لاننا بذلك لا نجعل ارآءنا بحسب كلام الله ولكن نقصر تعاليم الوحي السامية السرية على قياس افكارنا الضيقة. ومن جرّى ذلك نرى في قاعدة ايمان كثيرين من هولآء المسيحيين العقلآء ان بهآء الحقايق السموية قد سُلِب ولم يبقَ ما يفوق الاَّ قليلاً على قواعد الديانة الطبيعية. وهذا العمل ليس فيهِ مطابقة للعقل اصلاً

وان قيل كيف السبيل ان وجد معنى الكتب المقدسة الصريح مضادًا على الاطلاق للمبادي العقلية فنجيب انهُ اذا تبرهن ذلك تكون النتيجة بالاحرى افساد الكتب المقدسة لا جواز استخراج الراي منها على الاسلوب المذكور. ولكن لا يمكن ان يُبرهَن شيء من ذلك. والدلايل التي تقدمت لبيان مضادة التعاليم القويمة للعقل انما هي فاسدة. ونظيرها لو قُبِل في الديانة الطبيعية لاوصلنا الى انكار وجودهِ تعالى

ان الذين ينكرون وجود وحيٍ من الله كثيرًا ما يفرضون في كتبهم عدم امكان موافقة الايمان والعقل. وقد اشعروا بل جزموا بانهُ لا يمكن قبول الوحي بدون ترك العقل واظهروا

حزنًا على امتحانهِ بفحصٍ عقليٍّ لا يحتمل . وقد قال واحد منهم اسمهُ هوم في خاتمة رسالتهِ الشهيرة في المعجزات ان ديانتنا الكلية الطهارة موسسة على الايمان لا على العقل وانها تُلقَى في خطرٍ من هتك الفاضح اذا جعلناها موضوعًا لفحصٍ لا يمكنها ان تحتملهُ . ثم قال ايضًا ان مجرَّد العقل لا يكفي لاقناعنا بحقيقتها والذي يحركهُ الايمان لقبولها يشعر في شخصهِ بمعجزةٍ دائمة تناقض جميع اصول فهمهِ

ان هذه الطعنة المكمنة انما هي كعادة جميع الكافرين في كلامهم عن الوحي حتى تظاهروا بجسارةٍ منذ برهةٍ وجيزة . فانهم من وراء ستر المحبة بالفاظ الوقار على شفاههم قد قصدوا طعن الديانة المسيحية في قلبها طعنًا قاتلاً . واما من جهة القضية المتضمنة في ما اوردناه من كلام هوم فالمومنون بالوحي يرفضونها رفضًا كاملاً ويحسبونها كذبًا فاضحًا ولا اساس لها عندهم . ولا داعي لهذا القول من جرَّاء حالة المباحثة بين المسيحيين والكافرين بالوحي . لان المحامين عن الحق مستعدون دائمًا للاقاة اخصامهم في ساحة العقل الخالي من الاهواء . بل انهم قد برزوا لهم في كل ناحيةٍ يُقبلون منها . ونقول بكل طمانينةٍ انهُ لم يبقَ للكافرين قولٌ غير مردودٍ ولا حجةٌ غير مكشوفة ولا مدحوضة . وقد رُدَّ على رسالة هوم ذاتها ببيانٍ جليٍّ كافٍ لاقناع كل احدٍ عدا السفسطي والمرتاب في الاشياء كلها كما

سياتي الكلام عليهِ في مكانهِ

وبما اننا نرى كثيرين من الذين شربوا من هذه السموم ليس لهم سبيلٌ الى الترياق راينا ان نضع هذا المختصر في ادلَّة الديانة المسيحية راجين ان تفيد هولآء الفايدة الكبرى ولا نصدَّ الذين عندهم المطولات عن مطالعتها. وعسى ان تكون دوآء لما يُعَدُّ من اعظم الامراض المستحوذة على البشر

obeikandi.com

الفصل الثاني

في ان نفي كل ديانةٍ من العالم غير ممكن ولو امكن لكان من اعظم المصايب للجنس البشري

ان المقصود هنا ليس هو النظر الى الديانة من حيث وجوبها او كونها واسطةً لنوال السعادة في العالم الآتي لان الذين يقصدون نفي الديانة لايعتبرون كلا هذين الامرين. ولكن المقصود انما هو اثبات هذه القضية وهي ان التمسك بديانةٍ ما هو طبيعةٌ غريزية في الانسان فلا بد منهُ. ويتضح ذلك من الوقوف على اصول الطبيعة البشرية وعلى تاريخ العالم. فان للانسان بالطبع حاسيةً بالتزامٍ ادبيٍّ ومعرفةً للتمييز بين الحرام والحلال واشعارٍ بحزنٍ او سرورٍ عند نظرهِ الى سيرتهِ وخوفًا من جزاءٍ عتيدٍ عند ارتكابهِ معصيةً وميلاً الى تقديم عبادةٍ الى معبودٍ منظورٍ او غير منظور. وتسمَّى هذه الحركات بالحاسيَّات الدينية ولذلك يقال للانسان حيوانٌ دينيٌّ. ولا ريب انهُ لاشيءَ يميز الانسان من الحيوانات البُكم اكثر من هذه القابلية للديانة. لاننا مهما راينا في البهايم من

دلايل المعرفة في بقية الاشياء لانستطيع ان نعلمها شيئاً من الامور الادبية ولانجعل فيها تاثيرًا دينيًا. ومن الواضح ان هذه الحاسيات غريزيةٌ لاعرضية لانها توجد في البشر مهما كان عمرهم في جميع الازمنة وجميع البلدان وفي جميع احوالهم المختلفة من التوحش والتمدن. ولذلك ليس يوجد شعبٌ قديمًا كان او حديثًا بدون نوعٍ من الديانة. حتى ان وجود قومٍ بدون نطقٍ ليس بابعد من وجود قومٍ بدون شيءٍ من الديانة. نعم ان بعض السيَّاح قد اخبر بعد ملاحظة قليلة عن بعض قبايل بربرية انهم عادمون الافكار الدينية وليس عندهم عبادةٌ ولا معبود. ولكن بعد الفحص تحقق ان ذلك كان غلطاً منهُ. وبحسب معرفتنا الحاضرة بطوايف الارض نقدر ان نحكم حكمًا قاطعًا صحيحًا انهُ لايوجد شعبٌ واحدٌ خالٍ من الحس بامورٍ دينية ومن طريقةٍ للعبادة. وهذا الامر كان معروفًا جيدًا عند حكماء الازمنة القديمة وقد بنى عليهِ افلاطون وشيشرون عدة نتايج جوهرية. وهذه الاصول الطبيعية مغروسةٌ فينا غرسًا متمكنًا حتى لايمكن اقتلاعها. نعم انهُ قد يمكن ان الناس يتركون ديانتهم القديمة ويتمسكون بغيرها ولكن لايمكن ان يبقوا زمانًا طويلاً معتوقين من كل ديانةٍ. فاذا نُزِع منهم معبودٌ يلتصقون بغيرهِ واذا فقدوا السوء حالهم معرفة الاله الحقيقي يتخذون الهةً قد اخترعوها لانفسهم او اتخذوها من غيرهم. ويشهد بذلك

تاريخ جميع الشعوب شهادةً لايمكن انكارها. فعموم الديانة هكذا يبيّن باجلى بيانٍ ان هذا المبدأ غريزيٌّ بل هو امرٌ جوهريٌّ في طبع الانسان كما ان عموم الفة الناس بعضهم ببعضٍ يبرهن ان الالفة هي خاصية طبيعيةٌ فيهم

ان الكافرين بالله قد اجتهدوا بان ينسبوا جميع الحاسيات الدينية وطقوس العبادة الى حِيَل الكهنة وتدبير الحكّام. لكن هذا الراي غير مثبتٍ بشهاداتٍ تاريخية بل هو في نفسهِ مغايرٌ للعقل بالكلية. لانهُ لولم يوجد في عقول البشر ميلٌ سابق الى الديانة لما تصوَّر مثل هذا القصد في افكار الكهنة والحكام. ولو تصوَّر لخابت آمالهم من دخول اوهامٍ مثل هذه في عقول الناس خارجةً عن طبيعتهم. وعلى كل حالٍ لم يكن ممكنًا ان يدوم مثل هذا الخداع الى هذه المدة الطويلة ولا ان يعمَّ جميع شعوب العالم وقبايلهِ. لانه لولم يوجد في عقول البشر حاسية دينية لما كانت للكهنة وارباب السياسة يدٌ يتمسكون بها ولا اساسٌ يبنون عليهِ. حتى ان نفس وجود الكهنة يستلزم وجود ديانة قبلهُ

ثم انهُ قد قيل ان الخوف هو علة وجود الآلهة. وذلك ايضًا وان سلَّمنا به يثبت قضيتنا انهُ يوجد في طبيعة الانسان ما يقتادهُ الى الديانة بل انه اقرار بصحتها. فالسبب المحرك لايجاد الاديان في الزمان الماضي لابد ان يكون سببًا لايجادها ايضًا ما دام

العالم موجودًا. فاذن يكون نفي الديانة من العالم غير ممكن

اننا لانعلم الى اية درجة بلغ الكافرون بالله في محو جميع اثار الديانة من قلوبهم. انما لاشك ان بعضهم قد بالغوا في مقاومة الميل الطبيعي وخمود الحاسيات الغريزية. ولكن لنا دلايل كافية على ان ادعاءهم باعدام هذه الحركات فيهم لاصحة لهُ. اذ قد عُلِم ان بعضهم استعبدتهم المخاوف والوساوس اكثر من سايرالناس وان اخرين عند وقوعهم في خطرٍ شديد كهيجان العواصف البحرية رفضوا كفرهم للوقت وطلبوا الرحمة من الله بحرارةٍ عظيمة كانهم من اخصّ المومنين. فاذا كان هولاءِ الفلاسفة بكل فلسفتهم لم يقدروا ان يمحوا الاثار الدينية من عقولهم فلا بد ان يكون نفي الديانة من العالم كلهِ امرًا مستحيلاً

ولكن لو فُرِض حصول هذه الغاية الخطيرة ولم يبقَ للديانة اثرٌ في العالم فاذا تكون النتيجة من ذلك. هل كان الناس يبقون بلا معبودٍ ولا يعود يستحوذ عليهم خوف قُوّاتٍ غير منظورة ولا يحثهم ايضًا توبيخ الضمير على استعمال شيء يقدمون بهِ الوفاءَ عن خطاياهم ولا يقوم ايضًا خدّاعون وانبياءُ كذبة يمكرون بالعالم ثانيةً باحلامهم وتخيلاتهم ويدّعُون بوحيٍ والهامٍ. ان الذين يتوهمون عدم وقوع شي نظير ذلك لم يبلغوا كثيرًا من معرفة الطبيعة البشرية

فاذن الذين يقاومون الديانة المسيحية راجين بملاشاتها

الخلاص من الديانة بالكلية يغشون ذواتهم غشًّا عظيمًا. ولو تموا هذا العمل للزم تكرارهُ واعادة تعبهم مرارًا لانهاية لها. وعوض ديانة المسيح الطاهرة اللطيفة المترفقة يجدون انفسهم محاطين بخرافاتٍ دنسة كاذبة هايلة مستحيلة لم ينبت اشرُّ منها في اخصب اراضي العبادة الوثنية. كما نرى في ما بين الشعوب الامية حيث الادناس والشقاوات متسلسلةٌ بلا انقطاعٍ من الخرافات القديمة في احسن اقاليم الدنيا واكثرها سكانًا. وفي افريقية واميركا حيث القبايل المتوحشة موثوقة في اشدّ العبودية بالخرافات المنكرة. ولولا حسن تاثير ديانة المسيح لنبتت حالاً في بلاد المسيحيين شرورٌ مثلها او اعظم منها. وقد كان ابآونا قبل تمسكهم بديانة المسيح واقعين في هذه الحالة الشقية نفسها. وانهُ لامرٌ يستحق ان يُنادَى بهِ في الشوارع ان الكتاب المقدس هو الذي اعتقهم من عبودية الخرافات الخبيثة وانهُ وحدهُ هو الذي يستطيع ان يمنع تسلطها ثانيةً علينا. ان الفلسفة لم يكن لها يدٌ في خلاصهم هذا لانها مع كل مدارسها المشهورة وعلمايها البارعين لم تردَّ احدًا عن العبادة الباطلة. وكذلك ليس لها قوةٌ على منع رجوع الخرافات لو ارتفعت الموانع الاخرى

والان فلنتقدم الى الجزء الثاني مما نحن في صددهِ. وهو انهُ لوكان نفي الديانة من العالم ممكنًا لكان ذلك اشدَّ المصايب التي يمكن ان تعتري الجنس البشري

ان العلماء قد اختلفوا قديمًا في ايما هو اضرُّ للجمهور الخرافات ام الكفر. وقد تداول هذه القضية كثيرون منهم بحكمةٍ بليغة وانتهوا الى نتايج مختلفة. غير أن هذه المسألة مهما وقع فيها من الريب في الازمنة الماضية لم يبقَ فيها محلٌّ لهُ الان. اذ قد راينا من زمنٍ قريبٍ شعبًا عظيمًا قد طرحوا ديانة ابآيهم باحتقارٍ مهين وغاصوا دفعةً واحدة في لجة الكفر. وقد راينا من ذلك امتحان الامر هل يمكن قيام شعبٍ كثير العدد بدون ضبط من الديانة. وكانت جميع الظروف موافقة بقدر المرغوب لنجاحهم في هذا العمل. وذلك من جهة الارتقاء الى اعلى درجةٍ من العلم والتقدم في الفلسفة الى نحو الغاية القصوى والاعتناء بالتمدن ولطافة الاخلاق اكثر من كل من تقدمهم من الشعوب. ومع هذا كلهِ فما هي النتيجة. انها مكتوبةٌ باحرفٍ دموية عبرةً لمن يعتبر. كانَّ براكين عظيمة هاجت من احشاء الارض وهي تقذف طوفانًا ناريًا على جميع اوربا. ان العالم لم يشاهد قبلاً وليتهُ لا يشاهد ايضًا مثل ذلك المنظر من القساوة والحقد القبيح والنجاسة الوحشية والكفر الشنيع والظلم الهايل. وربما لم يلحق ذلك الليل الحالك الظلام صبحٌ لو لم يكن في ذلك الامر الذميم ما يُؤدّي الى فسادهِ وسقوطهِ عاجلاً. وذلك من حيث انهُ ليس للكفر رباطٌ لاتحاد اصحابهِ ولا اساس للالفة بينهم. لكنهُ يلقي على كل شخصٍ تهمةً ومن ثَمَّ يسبب في كل قلبٍ بغضةً.

وليس فيهِ علةٌ لعملٍ سوى مجرَّد محبة الذات التي لا تعتبر رباطات الطبيعة ولا تلتفت الى ما يوجب الشكر والمحبة. واما الحاسية الغالبة في قلب الكافر فهي الخوف. لانهُ عند شعورهِ بخلو نفسهِ من الفضيلة والشرف والرحمة يرى الاخرين على هذه الحالة ايضًا فيخاف منهم ويكون مستعدًّا لرفعهم من طريقهِ باية واسطةٍ كانت عند ما يظن انهم يصدُّونهُ عن اتمام مقاصدهِ. ولاجل ذلك قد ادار اوليك الكفرة سلاحهم بعضًا على بعضٍ بعد ان سفكوا دماءَ المسيحيين الابرياءَ والكهنة الذين لا ذنب لهم. ومن ثم غير مكتفين بقتل الذين خافوا منهم او حسدوهم نزَّهوا ابصارهم يوميًّا بمشاهدة سيول الدماءَ الجارية بلا انقطاع من تحت سيوف الجلادين. فان عدل الله لم يظهر قط على القساة الاردياءَ على نوع اجلى مما ظهر في جعلهِ هولاءِ الاشرار آلةً للانتقام بعضهم من بعض. وقد كانت الاداب العمومية في تلك البلاد في مدة نفي الديانة المسيحية على حالة من الفساد تفوق التصديق. وقد اخبر من شاهد هذه الامور عيانًا وكان لهُ علمٌ فيها انهُ كان يكثر عدد الذين يقتلون انفسهم وكانت السجون ممتلية من اناس غير مذنبين وكانت رؤُس المحكوم عليهم تقطع بلا انقطاع وشاع الحنثُ والغدرُ من كل نوعٍ والازدراءُ بسلطان الوالدين واباحة الفواحش باتخاذ اللواتي سمَّوهنَّ أُمهاتٍ غير متزوجات. وكثر الطلاق حتى ان نحو

ستة الافٍ طلّقوا نساءهم في مدينة باريس وحدها في نحو سنتين بعد اجازة الطلاق شرعًا. وبالاختصار كان هناك كل ما يُعَدُّ الفحش بين الرذايل وافظع بين المظالم. فاذا كانت هذه اثمار الكفر الحقيقية فالاولى بنا ان نختار عليها الخرافات باشنع صورتها. لان بين الكفر والخرافات هذا الفرق العظيم وهو ان هذه ربما تحلُّ بعض الذنوب واما ذاك فيفتح الابواب لجميعها. هذه تحجز ولو قليلاً عن الشر واما ذاك فيرفع كل مانعٍ لهُ. لان كل نوعٍ من الديانة لابد ان يكون فيهِ بعض مخاوف لمن يرتكب الذنوب اما الكفر فيَعِد ببراءةٍ كاملة من كل قصاص ويَسِم الفضيلة نفسها بسِمَة الجهل

ولكن لا نظن ان جميع الشعب في فرنسا كفر في تلك المدة. حاشاهُ من ذلك. فان اكثرهم نظروا الى ذلك المنظر بمقتٍ وكراهةٍ. ولكن كان السلطان يومئذٍ بيد الفلاسفة الكافرين ومع انهم كانوا جانبًا صغيرًا من الشعب استطاعوا ان يعملوا ضررًا هذا مقدارهُ. غير اننا من هذا المثال نقدر ان نحكم كيف يكون الحال لو كفر جمهور الشعب وتحرر من نصايح الضمير ورباطات الديانة على ان هذا لا يمكن ان يكون ولو كان لاعترف الجميع بانهُ لا يمكن ان تكون مصيبةٌ اشدُّ منها على الارض وكانت صورة جهنم بعينها في هذه الدنيا. لانه لا يوجد في جهنم شي ارعب من عدم وجود كل رجاءٍ ورفع كل مانعٍ عن ارتكاب

الشرور واباحة جميع الشهوات الردية. غير ان بين الحالين اختلافًا ظاهرًا في امر واحد وهو ان الكافرين ينكرون الاله الذي خلقهم واهل جهنم يومنون به ويرتعدون منه

obeikandl.com

الفصل الثالث

في انهُ لو رُفضت الديانة المسيحية لما وجدت ديانةٌ اخرى تقوم مقامها وتصلح للغاية التي لاجلها نحتاج الى ديانة

قد ثبت في الفصل السابق ان التمسك بديانةٍ امرٌ ضروري. والان لنا الديانة المسيحية التي هي بحسب اقرار الكفرة انفسهم تصلح لغاياتٍ كثيرة حسنة. فان اردنا ابدالها باخرى يجب ان نمعن النظر جيدًا في الافادة المنتظرة من هذه المبادلة. فاننا ان ارانا احدٌ ديانةً افضل منها ومبنيةً على براهين اثبت من براهينها يجب ان نتركها بكل رضى. والا فلا يوافق العقل ان نترك خيرًا حاصلاً بدون ان نحصل على ما يعادلهُ. لان ذلك يكون كانَّ ركَّاب سفينةٍ تتقدم بامنٍ الى المينا المقصود يعزمون على تركها من غير ان يعرفوا سفينةً اخرى يركبونها وذلك بمجرَّد زعم بعضهم انها سوف تغرق. فليظهر اعداء الديانة المسيحية مقصودهم ويخبرونا ما هو الذي يريدون ان يضعوهُ عوض الكتاب المقدس ان امكنهم. والا فلا يلزمونا برفض اعزّ آمالنا بدون معرفة ما يعوَّض بهِ علينا عن خسارتنا

ان هذا امرٌ كلي الاعتبار ومستحق العناية الجسيمة. لانهُ ان

قُصِد بالحقيقة وضع ديانةٍ اخرى عوض الديانة المسيحية فمن المعلوم انهُ يجب قبل المبادلة ان تكون لنا فرصةٌ لفحص بيناتها واصولها لنعرف هل تصلح للغاية التي لاجلها نحتاج الى ديانةٍ. ولاجل تسهيل المباحثة في هذا الموضوع يجب ان ننظر الى العالم اجمع ونسال ما هي الاشياء التي امامنا للاختيار فيها. فالتي يسعنا ان نتكلم فيها اثنتان الاولى عبادة الاوثان من الطرق الموجودة في ايامنا او في الاجيال الماضية. والثانية الديانة الطبيعية اي اتّباع ارشاد الطبيعة في الديانة من دون وحي

اما الديانة الوثنية فنبيّن نقايصها في محلها ونكتفي هنا بذكر البعض من الذين تجاسروا على طلب اعادتها. فنقول انهم وان كانوا قليلين لكن يوجد اناس مثل هولاء منهم المعلم كبون. على انهُ لم يصرّح بهذا الاعتقاد جليًّا بل يُستنتَج من اقوالهِ في تاريخ انحطاط المملكة الرومانية وانقلابها انهُ قد حزن جدًّا على انقراض الديانة الوثنية القديمة ولم يسرّهُ تقدم الديانة المسيحية اصلاً. فانه برينا انهُ لو رجع الامر الى ارادتهِ لما سمح بابطال الطرق القديمة ولاوجدت الديانة المسيحية مقرًّا. ولكن لا يصرّح بفكرهِ هل يريد بناء الهياكل ثانيةً وترجيع الطقوس الوثنية. وتعسر معرفة قصدهِ في مقاومة الديانة المسيحية ولا نعلم هل كان لهُ قصدٌ اخر سوى اظهار بغضه للانجيل وصاحبه

ثم ان المعلم تيلور قد اقرَّ علانيةً باستحسانه ديانة افلاطون

وارادته احياءها ايضاً واستحقر الديانة المسيحية بالنسبة اليها. ولكن لا نرى كيف حسب تلك الديانة موافقة لجمهور البشر الذين لم يكن لها تاثيرٌ فيهم البتة ما دام الفيلسوف ذاتهُ حيًّا. ولا تصلح هذه الديانة ان تكون عوضاً عن الديانة المسيحية التي من الطف محاسنها ان المساكين يبشرون بالانجيل. ثم اننا اذا كُشِف الحق فلا ريب ان نرى ذلك العقل السامي اي عقل افلاطون قد استمدَّ بعضاً من افضل مبادئهِ من الكتب المقدسة اما بواسطة او بغير واسطة. وانهُ لو عاش في نور الانجيل لما نظر الى الديانة المسيحية نظرَ هذا المعلم الكافر

ثم انهُ في زمان الانقلاب في فرانسا بعد امتحان احوال الاشياء مع نفي كل ديانةٍ اشار احدهم باقامة ديانةٍ جديدة مثل ديانة الفرس القدماء. وهي ان يشار الى الجوهر الالهي بنارٍ دايمة وان يُقرَّب لهُ قرابين من الاثمار والزيت والملح ويسكب سكايب من الخمر الى العناصر الاربعة. ورسم ان تُمارَس العبادة يومياً في الهيكل وان كل يومٍ تاسعٍ يكون سبتاً للراحة وان يشترك الجميع بالرقص والملاهي في اعيادٍ معلومة. وقد اتبع هذه الديانة الحديثة بعض انفارٍ في باريس وغيرها. ولكن لم يُلتفَت اليهم وبعد برهةٍ يسيرةٍ انطفا خبرهم وانقرضوا

واما اختيار الديانة الطبيعية اذا رفضت الديانة المسيحية فنقول فيه ان البعض من تابعي هذه الديانة قد تجاوزوا الحدود

في مدحها وتعظيمها على انها حاوية جميع ما يلزم الانسان معرفتهُ وانها بسيطة ومفهومة عند الخاص والعام. ولكن يا للعجب لا ترى اثنين منهم يتفقان في ما هي الامور الجوهرية للديانة التي لا بد من تعيينها قبل امكان ترتيب عبادةٍ دينية. فيختلفون على مسايل مثل هذه. وهي هل يوجد فرقٌ في الحقيقة بين الحلال والحرام. هل يلتفت الله الى الامور البشرية. هل النفس خالدة. هل الصلوة واجبة ونافعة. هل الطقوس الخارجية لازمة في العبادة

وايضاً لو كانت الديانة الطبيعية هي الديانة الحقيقية فلماذا لم تنمُ التقوى بين تابعيها. ولماذا لم يغاروا على عبادتهِ تعالى. أفلا تزداد التقوى بواسطة الحق وألا يكون المتمسكون بالحق يحبون الله اعظم محبة ويعبدونهُ احق عبادة. ولكن ما هي حالة هولاءِ الاشخاص. هل اشتهروا بحسن العبادة. وهل كثر فيهم امثلة صالحة في السيرة التقوية. كلاَّ بل الامر بالعكس حتى ان مثل هذا السوال عليهِ هيئة الهزءِ عند من يعرفهم. واذا قيل كافرٌ تقيٌ فكما يقال لصٌ امينٌ او سكرانٌ صاحٍ

وليس قولنا هذا على سبيل النميمة. لان الكافرين لا يدَّعون بالتقوى ولا يحبون العبادة وهي نفس الشي الذي يريدون ان يتخلصوا منهُ. ولو كانوا يظنون ان الكفر يوجب زيادة التقوى والعبادة لما كانوا يغارون عليهِ كما نراهم. فان الخصام ليس بين

ديانةٍ واخرى ولكن بين الديانة وعدمها. لانهُ لا يمكن لصاحب النفوس الحقيقية ان يرفض الكتاب المقدس ولو لم يطّلع على الادلة التاريخية لصحتهِ بل كان يجدهُ مناسبًا لذوقهِ ومفيدًا لنفسهِ حتى يتيقن ان مصدرهُ من السماء. ولكن مثل هذا الروح لا نجد في تصانيف الكافرين لا ولا شيئًا من حفظ التقوى بل نجد كثيرًا من الهزؤ والسماجة. واذا التفتنا من الكتاب المقدس اليهم نكون كمن ينتقل من مكانٍ معتدل الهواء الى زمهرير المنطقة المتجلدة. فاذا اراد الكافرون ان ينظر الناس الى ديانتهم بالرضى والقبول يجب ان يُظهروا التقوى الحقيقية مهتمين في خدمة الله بخلوص القلب. فذلك يؤثر اكثر من كل براهينهم. ولكن حينئذٍ لا نعود نجدهم مضادّين للكتاب المقدس بل معتبرين اياهُ كاشرف الكتب ومقبلين اليهِ ليوطدوا بهِ اركان التقوى النقية. فقد صدق اميرٌ من سودان افريقية حضر الى بلاد الانكليز وسُئِل ما ظنك في الكتاب المقدس اذ قال اظنه من الله لاني ارى كل الصالحين معهُ وكل الاشرار عليهِ

ثم ان الكافرين لم يستطيعوا قط ان ينشوا لذواتهم طريقةً للعبادة ولا ان يثبتوا عليها اذا انشوها. مع انهم قد اجتهدوا في هذا الامر مرارًا في اماكن كثيرة وفي اوقاتٍ مختلفة. والعلة الكبرى انما هي خلو نفوسهم من روح التقوى وحسن العبادة

ولنا امثلة كثيرة لصحة هذه القضية منها قسيس في ليفربول

قد رفض الكتب المقدسة وتمسك بالديانة الطبيعية. فانه ذهب الى مدينة لندن وهناك فتح بيتاً لاجل العبادة على مذهبهِ بموازرة البعض من ذوي الاقتدار واخترع طقساً اكثرهُ تقديم تسابيح وشكر للخالق فوعظ هناك مدةً يسيرة وتبعهُ اناس قلايل. لكنهُ راى اكثر جماعتهِ لم يقفوا عند مذهبهِ بل تقدموا الى الكفر بالله ايضاً. وبعد اربع سنين لم يبقَ لهُ نفقة ولا جماعة فانتهى الامر على ذلك

ثم ان فردريك الثاني الشهير ملك بروسيا المتمسك بالاقرار المذكور قصد بناءَ هيكلٍ في برلين لاجل اتباع جميع المذاهب والاديان. وكانت الغاية العظمى في ذلك انما هي استيصال الديانة المسيحية الا انهُ لم يتمّ لهُ العمل

ثم انهُ في ايام الانقلاب في فرنسا بعد ما وجدوا انهُ لابد من نوعٍ من العبادة قام جماعةٌ من الاكابر والعلماءِ وانشأوا طريقةً لعبادة الله حسب اصول الديانة الطبيعية واستعملوا الكنايس اماكن لعبادتهم. وكان دستور ايمانهم بسيطاً حاوياً قضيتين كبيرتين وهما وجود الله وخلود النفس. وكانت شريعتهم الادبية حاويةً مبدأين كبيرين وهما محبة الله ومحبة الناس. وكانت عبادتهم تحتوي على صلواتٍ وتسابيح مكتوبة في كتابٍ لارشاد العابدين في العبادة. وفي اجتماعاتهم كان يخطب بعض الاعضاءِ ولكن لم يُسمح ان يقدم خطابٌ للجمهور

الاَّ بعد فحصهِ من المناظرين. وقد اضيف الى هذه بعض طقوس بسيطة كوضع طبق اثمار وزهور على المذبح. وكانوا يستعملون الموسيقى بالاصوات والآلات في اجتماعاتهم. وجدُّوا كل الجد في ادخال هذه العبادة الى كل مدن فرنسا المشهورة. وانتشرت مقاصد جمعيتهم الى بلادٍ اخرى. وتوجه كتابهم الى جميع اقطار بلاد فرنسا بامر وزير الامور الداخلية

فانهُ لم تكن قط لجمعيةٍ اخرى في بدايتها وسايط اعظم وانسب مما كان لهذه الجمعية. لان الديانة المسيحية كانت قد رُفضت باحتقارٍ. وقد امتُحن الكفر بالله مدةً يسيرة فوُجد غير محتمل. والحكم كان موافقًا لهذا المقصد وسعى بهِ اناسٌ ارباب سطوةٍ وعلمٍ. وكانت لهذا المذهب الجديد كنايس مبنية مُعَدَّة. وطريقة الديانة الطبيعية التي اخترعوها كانت افضل ما يتصور. ولم يخلُ تركيب صلواتهم وطقوسهم من حكمةٍ وفطنة. ولكن مع موافقة جميع هذه الظروف لم تقدر الجمعية ان تقوم. بل من البداية كان اكثر الذين يجتمعون في اجتماعاتهم ناظرين فقط يحضرون على سبيل التفرج لا من اهل هذه الطريقة. وبعد برهةٍ يسيرة لم يبقَ لهم من يسمع خطاباتهم. ورويدًا رويدًا تلاشوا ولم يبقَ لهم الان اثرٌ

فتكون معرفة الاسباب المانعة نجاح جمعيةٍ متمتعة بمثل هذه الوسايط مفيدةً لكل طالبٍ. ولا ريب ان اعظمها ما كان

الا عدم وجود روح التقوى الحقيقية فيها. وقد ظهر ذلك في بداية اجتماعاتهم لانهُ لم يوجد فيها شي يحرك عواطف القلوب. وذلك بما ان خطباءهم مع كونهم من اهل العلم وخطباتهم تعلّم اصول الآداب لم يكونوا من ذوي التقوى ولا كانت سيرتهم دايمًا طاهرة. وكذلك تسابيحهم ربما كانت حسنة الانشاء وشجية الالحان ولكن اصحاب هذه الالحان كانوا من الذين يغنّون في المراسح ولم يكن شيءٌ من حسن العبادة في قلوبهم. واهل هذه الطريقة كانوا ايضًا يبخلون جدًّا في تقديم ما يلزم الجمعية من المال حتى انهم لم يقدروا ان يجمعوا في بعض جمعياتهم ما تجمعهُ افقر جماعات المسيحيين في يومٍ واحدٍ. فبعد هذا لا يُظَنّ ان الذين يقرّون بالديانة الطبيعية او غيرهم من الكفرة يخترعون لذواتهم طريقة مخصوصة للعبادة

ولكن عند البعض من الفلاسفة الذين يعتقدون ان الطبيعة البشرية يمكن ان تصل الى درجة الكمال بواسطة تاثير العلم والحكم الحسن بوجد نظرٌ وهيٌّ بقيام ديانةٍ عقلية فلسفية لا تحتاج الى طقوسٍ خارجية. وعقايدهم الاصلية هي ان الديانة امرٌ بين الله وضمير الانسان فقط. وان جميع ما يطلبهُ الخالق من الناس ليس هو الا عبادة القلب. واننا ان اشعرنا بالاحترام والشكر والخضوع نحوهُ تعالى وقمنا بما يجب علينا نحو الجمهور فقد تممنا الواجب علينا. وانهُ لا يمكننا ان نعرف ماذا يصيبنا

بعد الموت . ولا ينبغي ان نشوش ضمايرنا في ذلك . فاننا لا نعلم هل يقصدون جعل هذه الديانة للفلاسفة فقط امر للبسطاء وذوي الاشتغال ايضًا . ولكننا نعلم ان جمهور البسطاء والجهلاء يصيرون بهذا كأن لا ديانة لهم . لان اكثر الناس يحتاجون الى شيء محسوس منظور في الديانة فيطلبون ممارسة الطقوس والالفة للمحافل لاجل حصر الافكار وايجاد الرغبة وتحريك الحواس في العبادة . وكذلك اذا اثرت حركات التقوى في القلب تطلب الطبيعة اظهارها في الخارج حتى انه حيثما اشعرت اشخاصٌ بحاسياتٍ متشابهة في الديانة فلاسفة كانوا ام سادجين فهناك يوجد ميلٌ شديدٌ الى ان يشتركوا في اظهارها . فاصحاب الافكار التقية يسرُّون بان يشهروها بالاتفاق في حمد وعبادة الاله الذي يحبُّونهُ ويتَّقونهُ . ولا يوجد سببٌ لاخماد هذه الحركات ومنع النطق بها ولا يمكن ان يقع ذلك عمومًا مع كون التقوى تقوم خاصةً بحركات القلب . لان من فضل القلب يتكلم الفم . فهذه الديانة العقلية الموهومة تكون صحتها مشتبهة وسطوتها ضعيفة وتاثيرها في سيرة من يعتقد بها قليلاً ولا يمكن ان تكون مفيدة للاخرين على سبيل الاقتداء

وفي سنة ١٨٠٢ اعيدت الديانة المسيحية الى فرنسا بامر الحكم وحينيذٍ قال احد اكابرهم في خطابهِ امام ارباب الديوان والحكم ان الذين يفوزون بمعرفة العلوم لا يكونون الا قلايل .

واما الديانة فيتعلم الانسان بها بدون ان يكون عالماً. فبما ان الديانة الطبيعية التي يصل اليها شخصٌ بواسطة العقل المهذب عقلية نظرية فلا تناسب شعباً من الشعوب. واما الديانة الموحى بها فهي التي تشير الى جميع الحقايق المفيدة للذين ليس لهم فرصةٌ ولا وسايط للفحص المدقق. فمن الذي يريد ان يجفّف ذلك الينبوع المقدس الذي ينبع علماً ويفيض رسوماً صالحة ويقدمها لنظر كل انسانٍ ويعطيها ذلك السلطان وتلك الهيئة المقبولة التي بدونها تكون تلك الرسوم مجهولةً عند الجمهور وربما عند جميع الناس ايضاً. فانهُ لعدم التربية الدينية في العشر سنين الماضية قد صارت اولادنا كانها عادمة المعرفة بصفات الباري تعالى والتمييز بين الحرام والحلال. فمن ذلك تنتج العوايد البربرية ويصير الشعب متوحشاً حتى انهُ لابد من الحزن الشديد على ما سوف يصيب هذا الجيل وما بعدهُ. فوا اسفاه ما الذي ربحناهُ بانحرافنا عن السبيل الذي ارشدنا اليهِ اسلافنا وما الذي استفدناهُ باتخاذنا تعاليم باطلة عوض التعاليم التي كانت تحرك قلوب اوليك الفاضلين توربن وفنلون وباسكال. انتهى

وما ذكرناهُ عسى ان يكفي لاثبات قضيتنا الثانية التي هي لو رفضت الديانة المسيحية لما وجدت اخرى تقوم مقامها. او بالاقل لم توجد ديانةٌ تصلح للغاية التي لاجلها نحتاج الى ديانة

الفصل الرابع

في لزوم الوحي لتعليمنا كيف نعبد الله عبادةً مقبولة وما هو العالَم الآتي وحقيقة وجودهِ وعلى الخصوص كيف السبيل لخلاص الخطاة

لاحاجة الى تكرار ما ذكرناه في الفصل السابق من احتياج الانسان الى الوحي عند خروجهِ من يد خالقهِ. بل ننظر الان الى الانسان في الحالة التي هو عليها في الوقت الحاضر والتي حسب التواريخ كان عليها منذ القديم ونسأل ألا يحتاج جدًّا الى نورٍ اكثر مما لهُ وألا توجد بعض قضايا ضرورية يجهلها لاستحالة ما لم تُعلَن لهُ معرفة الحق بوحيٍ من ربهِ. ومن ثمَّ نرى لزوم مثل ذلك الوحي. ولكننا بقولنا لزوم الوحي ليس مرادنا لزومًا طبيعيًّا ولا ان الله ملتزمٌ باعطاءِ وحيٍ ولكن المراد انما هو اللزوم الذي يتعلق باحتياجات الانسان. فكاننا قلنا ان الانسان في كل زمانٍ وعلى جميع الاحوال قد وُجِد محتاجًا الى معرفةٍ لا يمكنهُ الوصول اليها بمجرَّد استعمال عقلهِ بل يفتقر الى وحي من ربّه لتحصيلها على نوعٍ كافٍ

وانهُ لو استطاع بعض الفلاسفة ذوو العقول الثاقبة ان

يكشفوا ببحثٍ طويلٍ عميق عن جميع الحقايق اللازمة معرفتها بالضرورة لبقي اعلان هذه الاشياء بوحيٍ من الله لازمًا جدًّا للجمهور اذ لا يوجد لاكثر الناس فرصةٌ او طاقةٌ على فحصٍ طويل عسير مثل هذا. ولكن حقيقة الامر حسبما نعلم من التاريخ هي ان حكماء هذا العالم وجهلاءهُ قد كانوا في الجهالة على حدٍّ سوى من جهة تلك القضايا التي يحتاج الانسان الى معرفتها اشد احتياجٍ. فانهم بعد ان احتجوا كثيرًا وتوهموا ونظروا الى حدّ امتداد العقل البشري قد عجزوا عن تحصيل الحق بدون شبهةٍ واكتفوا اخيرًا بمجرَّد الظن او زاغوا الى ضلالٍ مبين

وايضًا لو كان نور الطبيعة كافيًا للدلالة على شيء من الحقايق المعتبرة اللازمة معرفتها للانسان فانهُ لا يبطل بذلك احتياجهُ الى اعلانٍ واضح من السماء مُثبَتٍ بالبيّنات الصريحة يزيل بحكمهِ القاطع الشك من امورٍ فيها نتايج العقل ضعيفة مبهمة. لانه من اشد الضرورة في الحقايق الدينية لكي تؤثّر في الضمير وتحرك القلب ان تكون معلومةً لا يشوبها ريبٌ وان يشعر الناس بكونها مثبتةً بسلطان الهي. فانهُ قد وُجِد بالاختبار ان ما يكشفهُ الانسان بالاستنتاج العقلي شيئًا فشيئًا فعلهُ في الضمير ضعيف بالنسبة الى اليقين بان الله هو المخاطب لنا بواسطة وحيٍ من عنده. ثم ان الناس يختلفون كثيرًا في اعظم الحقايق وذلك مما يلقي الشك والريب على جميع ارآيهم. وعند ما

نقرا خُطَب احكم الحكماء الوثنيين ونلاحظ ما غشيهم من الظلام نحزن على ضعف العقل البشري حتى ان الافضل فيهم قد اشعروا وتحققوا بعدم كفاية العقل لادراكهم الحقايق وقد لاح لهم احيانًا رجاء ضعيفٌ بانهُ في زمانٍ ما سيُعلَن بطريقةٍ غير معروفةٍ تعليمٌ الهي لبني البشر الضالين

ويبان ايضًا ان اوضح افكار الفلاسفة واعظمها في الديانة لم تكشفها عقولهم ولم تكن نورًا اوقدتهُ الطبيعة ولكنها كانت اشعةً حقٍّ قد أُخِذَت بعيدًا او قريبًا من وحيٍ الهي كما سبقت الاشارة اليهِ. ونعلم ان الحكماء الوثنيين قد نسبوا كل معرفتهم الى تقليداتٍ وصلت اليهم خلفًا عن سلفٍ

وانها قضيةٌ لايمكن انكارها ان العقل مع مساعدة التقليد ترك الناس يمشون في الظلام ولم يمنعهم من السقوط في اقبح انواع العبادة الوثنية. نعم ان العقل يعلّم بوجود الله ووجوب عبادتهِ الا انهُ لايعلّم البتة من اي نوعٍ يجب ان تكون العبادة لكي تكون مقبولة وليس ذلك فى مكنتهِ. فان جميع ما استنبطهُ الانسان من طقوس العبادة لايليق بالله اصلاً ومن المحال ان يخترع الانسان طريقة عبادة مقبولة اذ لايرضى الله بخدمةٍ من هذا القبيل لم يفرضها هو بنفسهِ. فلذلك ان فقد الانسان فرايض الديانة الاصلية او صارت فاسدةً باجمعها فقبل ما يستطيع ان يودّى خدمةً مقبولةً لخالقهِ لابد لهُ من وحيٍ جديد. ولنا براهين

كافية لاقناعنا بان كثيرًا من طقوس العبادة عند الوثنيين انما هو رسومٌ الهية فاسدة قد اعطيت للناس بوحيٍ سابق. ولاسيما في ما يلاحظ الذبايح التي كانت جزءًا جوهريًّا من عبادة جميع الشعوب القديمة. ومن تلك العبادة قد وصل بعض اثارٍ الى القبايل البربرية في هذه الايام بواسطة التقليد. فلا ريب ان العقل لم يعلّم الناس اصلاً بان سفك الدم في قتل حيوان يكون ذبيحةً مقبولةً عند الله او ان تقدمة ذلك على مذبحٍ واحراق جميعهِ او جزءٍ منهُ يكون كفّارةً عن الخطية ومع ذلك قد عمّت هذه الطقوس العالم الا قليلاً كعموم قوة النطق. ثم انهُ قد لُحِظَت مشابهة كلية بين ذبايح شعوب بعيدة جدًّا عن بعضها في ظروف الذبايح كبناء المذابح وسفك الدم وتفسيخ الحيوان وتقديم ملح وخمر وخبز وبخور مع الذبايح واعتبار دم الذبيح وموتهِ كفارةً عن الخطية ووجود رتبة كهنوت لخدمة هذه الطقوس المقدسة ممن تكرّسوا للخدمة بكل وقارٍ وحُسِبوا اطهر من غيرهم واكلهم ما يبقى من الذبيح داخل الهيكل او الحدود المقدسة اذا كان لم يحرق جميعهُ. ونرى هذه المشابهة ايضًا في ذات تسمية الذبايح المتشابهة باسمٍ واحدٍ عند شعوبٍ مختلفة. فهذه المشابهات القريبة ونظايرها من طقوس الشعوب القديمة تبرهن انها من اصل واحد لامحالة. وكون ذلك الاصل وحيًا سابقًا اصدق مما يُعلَّل بهِ عن عادة الذبايح ومن ثمَّ نرى صدق التاريخ

الموسوي في اصل العبادة الدينية

واذا فرضنا ان طايفةً وثنية قد اقتنعت ببطلان عبادة الوثن وشعرت بانها ملتزمة ان تودي عبادةً خارجيةً الى الخالق جل شانه فبأيّة واسطةٍ تتوصل الى معرفة النوع المقبول من العبادة. فان العقل لا يستطيع ان يعلّمها ما هي الطقوس الواجب استعمالها وبدون وحيٍ من الله لا بد ان تبقى الى الابد بغير طريقة للعبادة او تخترع بعض طقوس يعلم كل اختبارٍ سابق بانها لا تسلم من اثر الضعف البشري. واذا كان ذلك كذلك يظهر ان الانسان محتاجٌ الى وحيٍ يعلمهُ كيف يقدم العبادة المقبولة لخالقهِ ولو فرضنا انهُ ليس بمخطئٍ

قد ادّعى بعض مولفي الكافرين ان كيفية عبادة الله امرٌ لا طايل لهُ لان الله يرضى بعبادة جميع الشعوب على حدٍّ سوى مهما اختلفت كيفية عبادتهم. ولكن هذا الاعتقاد مضادٌّ للعقل السليم كل المضادة. فانهُ بحسب هذا المبدا يتبرر تقديم الذبايح الانسانية الذي قد كثر جدًّا في العالم وتكون ادنى العوايد واردأها مقبولةً عند الله. ان عبادة الشعوب الوثنيين باسرها في الازمنة القديمة والحديثة مكروهةٌ جدًّا وكل من لهُ نظرٌ لايقٌ في صفات الله لا يمكن ان يقنع نفسهُ بانهُ تعالى يرتضي بعباداتٍ متصفة بالقساوة والنجاسة والجهالة مثل هذه. ولا تتجه عبادتهم نحو الاله الحقيقي بل نحو الهةٍ كاذبة هم قد استنبطوها فلا

يذبحون لله بل للشياطين. وقد وضعوا مكان الاله العظيم مخلوقاتٍ من كل جنسٍ ونوعٍ. لا يقدر عاقلٌ ان ينظر الى هيكلٍ وثني الا ان يقشعرَّ وينذهل من طقوس تلك العبادة المكروهة الدنسة. وكلما ازددنا تاملاً في هذا الموضوع زاد نظرنا شدة احتياجنا الى وحيٍ الهي وادراكنا منافعهُ العظيمة للجنس البشري. فمن يقدر ان يقف مثلاً على اخبار الهة المصريين القدماء او الهنود الحدثاء وعبادتهم الوثنية ولا يرى شدة الاحتياج الى ما يكشف تلك الظلمة الهايلة ويقطع رباطات تلك الخرافات الفاحشة

ثم لنا برهانٌ اخر للاحتياج الى وحيٍ الهي وهو انهُ بدون الوحي لا بد للانسان من ان يبقى جاهلاً باصلهِ وباخرتهِ ولا يستطيع ان يفهم الظروف التي هو فيها. فيجد نفسهُ في هذا العالم ويشعر بان كرور الزمان حاملٌ لهُ ولساير جيلهِ الى هاوية مظلمة امامهُ لا يرى منها فرارًا. واذا سال عن اصل الجنس البشري وطلب معرفة كيفية وجودهِ الاثيم الشقي المايت لا يجد احدًا من الاحياء او الاموات يعطيهِ خبرًا كافيًا. ان جميع تقليدات الناس وتواريخهم عن الاجيال الاولى مشحونة كذبًا وان صدقتْ في بعض الاشياء فالصدق والكذب فيها ممتزجان حتى لا يمكن التمييز بينهما. فلو ارتفعت الاخبار الموجودة في الكتاب المقدس لكان كل ما تعلمناهُ من غيرهِ

لا ينيرنا البتة في معرفة اصل جنسنا. والكافر بالوحي لا يمكنهُ ان يعلّل بما يوافق العقل عن خطية الانسان وشقاوتهِ وموتهِ. فان ظلام هذه الامور وابهامها قد الجأ كثيرين من الذين انكروا سلطان الكتاب المقدس ان يتمسكوا بوهميات بعيدة وكفرية في شان اصل الانسان. فادّعَى بعضٌ بالاعتقاد ان الارض وسكانها قد كانت منذ الازل. وبما ان ذلك محالٌ لا حاجة الى الرد عليهِ. وتسلّى اخرون وسلّوا من يقرأ مصنفاتهم بان الجنس البشري كان في الاصل نوعًا من الافراد ثم طرحوا عنهم بالتدريج صورتهم وعوايدهم الوحشية وبعض زوايد غير بشرية وعلى توالي الايام استنبطوا اللغة والصنايع اللازمة للبدن في لباسهِ ومأواهُ وصاروا يتقدمون درجة بعد درجة في الاصطلاح حتى وصلوا الى هذه الدرجة من التمدن والنظام التي وصل اليها احسن الطوايف تمدُّنًا. فاوهام مثل هذه كافيةٌ لبيان كون نور العقل في هذا الموضوع قليلاً جدًّا وكوننا في غاية الاحتياج الى وحيٍ الهي. فلا يمكن من يكفر بهِ ان يستنبط رأيًا يُروِي بهِ غليلنا ويعطي خبرًا كافيًا عن حالة جنسنا الادبية ونعرُّضه للفناء. نعم انه قد يمكنهُ ان يقول ان ذلك سنَّة الطبيعة الا ان هذا القول انما هو اقرار بالواقع لا اعطاء سبب وجودهِ

ولربما كنا نرتضي ان نبقى بدون معرفة اصلنا لو كان يمكننا معرفة نصيبنا المستقبل وكيف يتعلق ذلك بصفاتنا وسيرتنا

الحاضرة. فان العقل قد اجتهد حتى استفرغ كل قواهُ في اثبات خلود النفس اثباتًا غير متزعزع. ولكن نتائج هذا التعلل لم تكن الا بيان الامكان او الاحتمال الارجح ان النفس تبقى حية بعد موت الجسد. والحال اننا في هذه القضية اكثر من غيرها نحتاج الى كمال التحقيق. فكم من غموم كان يثملنا لو تبرقعنا بظلام الشك والريب عند ما ننظر الى المستقبل ولاسيما لو لم يكن لنا ما نتمسك بهِ الا نتائج عقولنا الضعيفة واوهامها عند نزولنا في القبر. ولا يُظَنَّ اننا نحتقر قوة البراهين العقلية لخلود النفس. لان كثيرًا من الفلاسفة الوثنيين قد كانوا يعتقدون بموت النفس مع الجسد ومن الذين كانوا يومنون بوجود الاخرة كان اناسٌ يعتقدون بموت النفس بعد مضي الف سنةٍ او اكثر. واخرون كثيرون كانوا يعتقدون بتناسخ الانفس من جسد حيوانٍ الى اخر مداولةً دايمة. واكثر من هولاءِ كانوا لم يتصوروا الخلود الا ان النفس التي كانوا يعتقدون انها جزءٌ من الاله ترجع عند الموت وتمتزج بالجوهر الالهي وما هذا الا انكار وجودٍ عتيد لانفس مفردة ذوات اشعار شخصي. حتى انهُ لمثل سقراط وافلاطون وشيشرون لم يكن رايٌ بيّنٌ وثابتٌ في هذا الموضوع العظيم. وليس ذلك لعدم استعمال عقولهم الحاذقة لان هذا الموضوع اشغل عقولهم اكثر من غيرهِ. ولكن لانهُ كان محاطاً بظلامٍ لا يستطيع العقل المجرد عن المساعدة من الله ان يكشفهُ.

وكم من الفرح كان يشمل اوليك الفلاسفة لو حصلوا على لمحةٍ من نور ذلك الوحي الذي يحتقرهُ الكافرون في ايامنا

ان عامة الكافرين بالوحي كانوا يسلمون قديمًا بوجود الاخرة والجزآء العتيد الا انهم كانوا يظهرون على انفسهم الايمان بان العقل كافٍ لاثبات هذا الاعتقاد. واما الذين خلفوهم فى هذه الايام فاما ان ينكروا ذلك واما ان يرتابوا بهِ. واذا تاملنا باستقامةٍ في كل ما اوجد العقل البشري من البراهين قديمًا وحديثًا لاثبات هذه القضية نلتزم ان نعترف باحتياجنا الى نورٍ ايضًا. ولا يستطيع احدٌ ان يحقق لنا تحقيقًا كافيًا عن وجودنا العتيد السرمدي الا الله وحدهُ لان ذلك متوقفٌ على ارادتهِ فقط. نعم انهُ قد يقدِّم براهين لاثبات ان النفس غير مايتةٍ طبعًا غير انها لا تبين الا ان اسباب موت الجسد لا تاثير لها في اعدام وجود النفس وعملها. وتلك البراهين المسماة بالبراهين الادبية لا تثبت الا انهُ ان كان الله يسوس مخلوقاتهِ في هذا العالم بحكم ادبي فلا بد من جزآء عادل فيما بعد. ولكننا نحتاج في هذا الامر الى تحقيقٍ اكثر من ذلك. نحتاج الى واحد ياتينا من ذلك العالم ويخبرنا بوجود الاخرة. نحتاج الى ان نسمع صوتًا من الله يشهد لنا ليس فقط بالاخرة بل بيوم الدينونة العادلة ايضًا. واذا تقرر ذلك فقد صار كل واحد يستطيع ان يحكم لنفسهِ هل هو محتاجٌ الى وحيٍ من ربهِ ام لا

ويثبت ايضاً هذا البرهان عن الاحتياج الى الوحي من ملاحظة حال الديانة والاداب بين الطوايف الوثنية. قد تواردت الاقوال ان احسن الطرق لمعرفة ما يستطيعهُ العقل من العمل هي النظر الى ما قد عمله في ما مضى من الزمان ولاسيما عند كونهِ على احسن حالةٍ من التهذيب والمعرفة. ففي العلوم الطبيعية قد ننتظر اكتشافاتٍ مستحدثة بواسطة استعمال العقل. وربما يُعرَف علم الآداب في زمان مستقبل احسن معرفة من الان. ولكن اذا كانت الشعوب التي هي في اعلى درجة من التمدن والعلم قد عجزت كالشعوب التي في ادنى حال من التوحش والجهل عن تصور اراء صحيحة في اعظم قضايا اللاهوت والاداب وقد تورَّط الجميع في اشنع الضلالات وابعدها عن العقل وارتضت بانجس العوايد الوثنية واسمجها فما اوضح الامر انهم كانوا في غاية الاحتياج الى وحي الهي. ولعل غاية الرب في ترك الشعوب ان يسلكوا بحسب طرقهم فى تلك المدة الطويلة كانت اقناعنا بعجز عقولنا لكي نقبل منه تعالى هذه المنة العظيمة بكل شكرٍ قلبي عند ما يقدمها لنا الله

ولو استوفينا حق الكلام على هذا البرهان لاشحنّا كتبنا. ولكن بما ان غيرنا اتسع فيهِ فلنتركهُ ملاحظين فقط ان القبايح المنكرة التي قد تولدت من كل ديانةٍ وثنية لا تؤثر في عقولنا الا قليلاً لاننا نسمع اخبار هذه الامور من بُعدٍ فقط.

وقد نميل احيانًا الى الظن بانهُ قد بُولِغ فيها والحال انهُ لم يُخبَر بنصف الواقع ولو أُخبِر بكلهِ لكان ذلك منافيًا لكل لياقةٍ ولطفٍ. وانهُ لامرٌ مهولٌ ان ملايين كثيرة من اخوتنا كانوا منذ هذا الزمان الطويل تحت نير عبودية الخرافات وهي عبوديةٌ توثر في العقل وتسبب شقاوة الجنس البشري اكثر من كل ما عداها. ومن حيث ان الديانة الوثنية لم تزل باقيةً وشرورها لم تتناقص على مدى الزمان تسهل لنا مقابلة العالم المسيحي مع العالم الوثني. فارفع عينيك الى كل جهةٍ من العالم واخبرنا اي مكانٍ هو في اشدّ الظلام واي مكانٍ يتلألأُ فيهِ نور الحق. أليس خط الحدود بين النور والظلام ظاهرًا. أوليس في غاية الوضوح ان الكتاب المقدس بركة عظيمة لكل من يقتنيهِ ويقراهُ. وهنا محلٌّ لمقابلة الطوايف المسيحية التي تبيح قراءة الكتب المقدسة من غير مانع بتلك الطوايف التي تحصرها في لغاتٍ ميتة لكننا لا نتعرض لذلك. بل نقول ان من كان مطّلعًا على ما حصل من اعمال المرسلين في هذه الايام ولا يعترف بان الانجيل هو اعظم الفوايد التي تُفاد بها الطوايف الوثنية فان عينهُ تكون مغشّاةً بقشورٍ غليظة من هوى النفس والميل المنحرف. فينتج اذن اما ان خديعةً خبيثة وخرافةً مصطنعة بالدهاء قادرةٌ على اصلاح وتهذيب اوحش القبايل الوثنية واما ان الديانة المسيحية وحيٌ الهي وهي مصحوبة بقوةٍ من الله

لتكون فعّالةً في انارة الامم وارشادهم وخلاصهم. فليختر الكافر من الطرفين ايهما شاء. فلو ذهب جماعةٌ من الذين لا يعتقدون بالوحي الى افريقية او الى جزاير سند ويج او الجزاير المتقاربة لكي يهدوا الوثنيين الى الحق فهل كان يحصل شيءٌ من ذلك الاصلاح الذي قد حصل من تبشير المرسلين المسيحيين. انهُ ربما ضحك القاري عند ما نفرض ان الكافر قد صار رسولاً ليهدي الامم الى طريق الحق ولكن نفس هذا الاشعار يبرهن جليًّا ان الكفر لا يصلح ان يكون واسطةً لاصلاح العالم. والحال ان الكافر لو كان مصيبًا في رايه لكان من اوفق الناس للرسالة في شان هدى عبدة الاوثان. ولكن الكافرين لا يعتمدون على مباديهم من هذه الجهة ولا غيرة لهم على بذرها في حقل هذا العالم ولا يرفضون ما يرفضهُ المسيحي من نعيم هذا العالم لتحصيل هذه الغاية الحميدة

ولكن ما الداعي للذهاب الى بلاد بعيدة وثنية لاثبات لزوم الوحي مع وجود ما يكفي من البرهان امام عيوننا. فانهُ قد يمكننا باية مدينةٍ كانت من مدننا الكثيرة السكان ان نضع حدًّا ظاهرًا يفرق بين الذين هم تحت نور حق الانجيل وبين الذين يضعون انفسهم خارجًا عن دايرة الاشعَّة الانجيلية. فلنقطع النظر عن نوعٍ اخر بين هذين الطرفين لا يُعَدُّ منهما ولنفرض ان ثُلث السكان البالغين يواظبون الذهاب الى

الكنيسة ويسمعون اخصّ حقايق الانجيل وان ثُلثًا آخر لا يحضرون صلوةً ابدًا وان حضروا فيكون ذلك نادرًا. فبين هذين النوعين يمكننا ان نضع مقابلة. وإنْ كان قد يستثنى البعض من الجانبين ولكن بالاجمال لا يبقى محلٌّ للشك في كون الديانة مفيدة ولازمة. لانه يبان واضحًا من اي هذين النوعين يأتي المذنبون الذين تمتلي منهم السجون ومن ايهما يتقدم صالح الجمهور. فلو فرضنا اولًا ان كل الذين لا يقرأون الكتاب المقدس ولا يحضرون المعابد ارتفعوا من بيننا او فرضنا ثانيًا ان الذين يواظبون الصلوة في بيت الله ينتقلون الى بلادٍ اخرى فعلى الفرض الاول كنا إنْ لم اكن سهوت في ذلك سهوًا عظيمًا نستغني عن اكثر وسايط المنع والحجز ونكتسب النفقات الجزيلة على قيام الدواوين والسجون وعلى الفرض الثاني لم تكن جميع اموال البلاد تكفي لاقامة السجون ولتقديم وسايط المعيشة للمذنبين. او بالحري كانت تصير مدننا العظمى كسادوم وعند ذلك يلحقها ما اصاب سادوم فتهلك ولا تقوم ايضًا

وان قال قايلٌ ما ذُكِر ليس بصحيحٍ على التمام لانهُ يفرض عدم وجود ديانةٍ وعدم امكان وجود ديانةٍ غير موحى بها. فحينئذٍ نسال المعترض ان يعرفنا ما هو نوع الديانة الذي يُنتظَر لو رُفِع الكتاب المقدس من بيننا. فعوضًا عن مئاتٍ من الواعظين بالانجيل الذين يرفعون اصواتهم كل يوم احدٍ

ليحذروا الناس من خطر الهلاك ويرشدوهم الى طريق الحيوة او امثلات تلك المنابر من الخطباء الكافرين فهل كان ذلك يأول الى قيام الآداب والى سعادة الجمهور. اننا جميعًا نعرف ان كثيرين من الخطاة قد تابوا واهتدوا بواسطة مواعظ الانجيل ولكن هل عرفت احدًا او سمعت عن احدٍ قد ارتدَّ عن ضلالهِ بواسطة استماع خطاباتٍ كفرية

لاريب انهُ قد يكون كثيرٌ من انواع الديانة بدون وحي ويشهد لذلك جميع العالم الوثني. وان بعض اناسٍ عالميين لم يفرقوا بين الديانات ولا ميزوا بين خادميها بل مزجوا الجميع سويةً. مع ان الديانة الحقيقية تختلف عن الاديان الكاذبة كاختلاف النور عن الظلمة. والمانع الوحيد لامتداد الاديان الكاذبة انما هو القيام بالديانة الحقيقية. نعم ان الكفر قد يمحو نوعًا من الخرافات ولكن بعد ذلك ينقلب الحال ويأتي نوع اخر من الترفض او الخرافات كطوفانٍ. لانهُ لابد للناس من ديانةٍ كما بيَّنا فيما تقدم فاذا نزعت الديانة الحقيقية الموافقة للعقل الهادية الى الخير يدخل حالًا عوضها اشد الديانات الكاذبة ترفُّضًا ومحالًا. وعندما تنطفي نار الهياج تبقى انواعًا فظيعة من الخرافات. ان الديانات الوثنية كانت اولًا ممتزجة بشيء من الحق من تقليدٍ سابق. لانها جميعها كانت ناشئة من فساد عبادة الانسان الساقط الاصلية كما رأينا. فلو رُفِعَت

الكتب المقدسة لدخل عوضها اما زعازع الكفر مصحوبةً بالمعاصي الدنسة المخضبة الثياب بالدماء او تلك الخرافات المانعة كل عملٍ صالحٍ والمدنسة كل عاطفةٍ شريفة من عواطف القلب والمفسدة كل سعادةٍ في العيال

انهُ قد يستند احيانًا بناءٌ عظيم على بعض اعمدةٍ متينة لو نُزِعت من مكانها لسقط البناء خرابًا . وهكذا تتوقف سلامة الجمهور ونظامهُ وراحتهُ في الامور المدنية على امرين لم ياتيانا الا من الوحي . اولهما فرض الزيجة الطاهرة وثانيهما التزام اليمين التزامًا دينيًّا . فلو ارتفع هذان الامران لانهدم بناء السعادة البشرية من اساسه

ولكن البرهان الذي نريد ان نتوسع بهِ لايضاح لزوم الوحي هو انهُ بدون الوحي لايمكننا اصلاً ان نعلم كيف يمكن الخاطي ان يحصل على غفران الخطية وخلاص النفس . فاننا لو سلمنا بان العقل يرشدنا بايضاحٍ كافٍ في جميع التزاماتنا الادبية وبان الانسان اذا تمم واجباتهِ لايطلب منهُ اكثر من ذلك بل يحق لهُ ان يستأمن متكلاً على عدل الله وجودتهِ وبانهُ لايحصل لهُ شرٌّ في هذه الطريق ولا يوخر عنهُ الجزاء الموافق وبان لجميع الناس معرفة ذلك لكان لنا سبيلٌ ان نقول ان كل ذلك لايجدي نفعًا في امر حالة الانسان التي هو عليها . فان معرفة ديانةٍ تناسب حال انسانٍ بارٍّ شيءٌ ومعرفة طريقةٍ

بها ينال الخاطي مغفرة خطاياهُ شيءٌ اخر. وقد يعرف الانسان انهُ مثلاً اذا خضع لشرايع بلاده يحامي عنهُ كل حاكمٍ عادل الا انهُ اذا خالفها واستحق عقابًا عظيمًا لاتنفعهُ تلك المعرفة شيئًا. والذي يحتاج الى معرفتهِ عند ذلك انما هو كيفية الحصول على المغفرة والخلاص من انتقام تلك الشريعة التي قد تعدَّى عليها. وفي كل حالٍ من ذلك يحتاج اشد الاحتياج الى تعريف من الحكم الاعلى ان لهُ ارادةً ان يعفو عنه بشرطٍ معيَّن. انهُ في جميع الاحكام لايمكن ان الحاكم يعفو عن ذنب المجرم بكل سهولةٍ او ان يكون ذلك جزءًا من الشريعة لانهُ مغايرٌ لوضع السياسة الحكمية ومنافٍ لالزام الشريعة وسلطانها. واذا تقرر ذلك ياتي حالاً معرض هذا السوال العظيم. وهو هل ان الانسان خاطي وهل تعدَّى جميع الناس شريعة الله. واما الجواب فنعدل عن ذكره هنا ونتركه الى حكم ضمير كل انسان. لانهُ لايوجد انسانٌ على الارض لايشعر بانهُ قد خالف شريعة طبيعتهِ سواءٌ كان ذلك بتركهِ ما كان يجب عليهِ ام بارتكابهِ الخطية

فبعد التسليم بان جميع الناس خطاة نسال ماذا يعلمنا نور الطبيعة عن غفران الخطية. فمن جهة هذه القضية العظمى نبين ان العقل لايخبرنا شيئًا. ولذلك لاتستطيع الديانة الطبيعية ولو عرفها الانسان حق المعرفة ان تاتينا بالفرج

المحتاجين نحن اليهِ. والبرهان الذي نعتمد عليهِ مختصر بسيط. فان العقل السليم يحكم بان الله عادل ويجازي كل احدٍ كاعمالهِ وبانهُ لايجوز مخالفة شريعتهِ بدون عقاب لانها صالحة ومستقيمة. ولايمكن الكافر بالوحي ان يتصور اعتراضاً على ذلك بل لابد ان هذه الحقيقة تكون بيّنةً من نفسها عند كل معترف بالله وبحكمهِ على خليقتهِ الناطقة. فاذن الامر واضحٌ انهُ من جهة نور العقل لايوجد شيء امام الخاطي الا ان يحتمل القصاص العادل لاجل ذنوبهِ. ثم لو فرضنا ان العقل يخبرنا بان الله يغفر الخطية للزم ان تكون احكامهُ متناقضة. لان الغفران هو عدم القصاص وقد راينا مما تقدم ان حكم العقل هو ان الله عادلٌ ويجازي كل انسان حسب ما يستحق. ولايخفى ان هذين الامرين لايمكن اجتماعهما معاً

وهنا يجب تحذير القاري من براهين فاسدة ووهمياتٍ غير مفيدة في امرٍ جوهري مثل هذا. فاننا لانعرف موضوعاً يستند الناس فيهِ على اقيسةٍ عقيمة وبراهين فاسدة كما في البحث عن مغفرة الخطايا. ولنذكر البعض من تلك البراهين الفاسدة. فنقول زعم كثيرون ان الله من شانهِ الجودة والرحمة حتى لايليق ان يعذب خلقهُ المايلين الى الخطية عذاباً اليماً. فهذا الزعم مع انهُ يظهر عليهِ تقديم الشرف لله كما يرتاح بهِ ايضاً فكر الخاطي الا انهُ عند التحقيق يكون اهانةً لا شرفاً. لانهُ يستلزم ان ملك الكائنات يخرج عن عدلهِ شفقةً على مخلوقٍ عاصٍ وانهُ يختار تدنيس

شريعتهِ على قصاص الذنوب كما تستحق. فاذا يُظَنُّ لو قبل في فاضٍ من البشر ان جودتهُ ورحمتهُ تمنعانهِ عن الحكم بالقصاص الذي توجبهُ الشريعة. فان كان ديان جميع الارض لايعاقب جميع الخطايا كما تستحق على حسب المبدأ العام فعلى اي مبدا يعتمد. هل يعاقبها نصف ما تستحق. فان ذلك قد يكون عذابًا البًا. فتكون النتيجة ان جودة الله تمنعهُ دايمًا عن قصاص الخطية مهما كانت عظيمة. ان كثيرين في ايامنا هذه وهم لايُدعَون كافرين الا انهم اكثر ضررًا من اوليك لانهم يمزجون شيئًا من الحقايق الانجيلية بضلالاتهم يتمسكون بهذا المعتقد اشد التمسك ويعلّمون بهِ بكل غيرةٍ. ولكنه يستلزم ان الله عز وجل يعامل العاصي الخبيث كما يعامل العبد الودود المطيع على حدٍّ سوى. وفي معاملتهِ خلقهُ لايُظهِر غضبًا على الخطية اكثر مما يظهر على احسن الفضايل. فلو وُجِدَت جودةٌ مثل هذه لما كانت في الباري كمالاً ادبيًا بل نقصًا مبينًا حاشا الله من ذلك. فان صفاتهِ لايشوبها ادنى نقص ولا يوجد فيهِ جودةٌ تمنع استعمال العدل التام. فاذا اراد ان يخلص الخطاة من عاقبة خطاياهم فلا يكون ذلك بخروجهِ عن عدلهِ بل باستيفايهِ اياهُ استيفاءً تامًّا. ولكن كيفية ذلك امرٌ لايعلم منه مجرد العقل شيئًا. وان قال الكافر ان جميع الصلاح الادبي لايقوم الا بالجودة ولذلك لايعاقب الله احدًا الا لخيرهِ اجيب انه في جميع الاحكام الارضية الجودة

الحقيقية تفضّل خير الجمهور على خير واحدٍ مذنب وخير الجمهور يطلب ان يُخَوَّف ويُمنَع المجرمون بواسطة القصاص. واذ ذاك يلزم الاثبات اولاً انه في حكم الباري تعالى بعكس ذلك خير العالم لا يطلب قصاص المجرم قبل ان تُستنتَج نتيجةٌ مثل هذه من جودة الله

ومن ثم يظهر ان الزعم الذي كان موضوع كلامنا ولئن كان موافقًا للعقل المحب للخطية وكان ظاهرهُ مقبولاً لا يحتمل الفحص. وعوضًا عن ان يأول الى شرف الله يسلب منهُ كل ما هو ممدوحٌ في صفاته الادبية ولا يترك له صلاحًا الا جودةً لا تميّز بين خلقهِ ولا تلتفت الى صفاتهم الادبية. فمثل هذا الاله لا يمكن ان يكون موضوع الاحترام والاعتبار عند عاقلٍ طاهر. فان الهًا ذا صلاحٍ غير متناهٍ قد يمكنهُ ان يعاقب الخطاة بحسب استحقاق ذنوبهم من دون تعرضٍ لجودته. واما اله قدوس ذو عدلٍ لا يُحَدُّ فلابد ان يعاقبهم. أفلا يعدل ديان جميع الارض

وقد ذهب اخرون الى ان نور العقل يحكم بان قصاص خطايا الناس انما هو الشر الحاصل منها بحسب الشريعة الطبيعية ونظام العقل البشري وانهُ لا خوف من عقابٍ اخر اشد منه. ولكنهم لم يقدموا برهانًا لاثبات هذه القضية اذ لا برهان لها. لان من يعلم ما يحكم بهِ ديان الجميع من القصاص للخطاة لاجل اظهار عدلهِ واستيفاء حق شريعتهِ وتخويف الاخرين من

الخطاة. ثم اننا بحسب ما يمكننا من الملاحظة لانرى الناس يتعذبون في هذه الحيوة بنسبة خطاياهم لان الاشرار كثيرًا ما ينجحون في اعمالهم وعند ما نقسو ضمايرهم ونصير عديمة الحس فقلَّما يوبخون انفسهم عند ارتكاب اعظم المعاصي. فان الخطاة عند اول دخولهم في الخطية يعذَّبون بعذابٍ شديد من توبيخ الضمير واما المتمرغ في الاثام فيفقد الانزعاج المفرط ولذع الضمير لايؤثر فيهِ. ثم لو سلمنا بان جميع قصاص الخطية هو ما نتج عنها بحسب الطبيعة فمن يعلم بجميع النتايج الحاصلة منها ومتى يكون منتهاها. فان الذنوب لاتاتي دايمًا بأَمَرّ اثمارها حالاً ولكن نرى خطايا النَهِم والزاني والسارق في احيانٍ كثيرة تلحقهم بعواقبها الردية بعد ارتكابها بزمانٍ طويل. فخطايا الشبوبية كثيرًا ما ينتج عنها شيخوخة شقية. ولو نُظِر الى سيرة كثيرين اوصلتهم رذايلهم الى السجن او المارستان لوُجِد ان سبب شقاوتهم يتصل الى خطايا شبابهم الخطايا التي يستخفُّ كثيرون بارتكابها. ومن حيث ان تلك العواقب تتزايد حتى الموت فمن يستطيع ان يحقق للخاطي ان هذه الزيادة الفظيعة لاتدوم بعد الموت. وبما ان الكلام الان ليس مع الكافر بالله فلنا حقٌ ان نتخذ خلود النفس كقضيةٍ مسلَّمة. فان كانت توجد النفس بعد موت الجسد أفلا يبقى فيها ما اكتسبتهُ في هذا العالم من الصفات الادبية. ألا يبقى البخيل بخيلاً والمتكبر متكبرًا والخبيث خبيثًا

عند ما يحلُّ هذا المسكن الترابي. ألا يبقى ذلك الانسان رديًّا بعد الموت الذي قد بقي رديًّا الى حد موته. ألا ياخذ معهُ قوة ذاكرتهِ وضميرهُ وشهواتهِ الملتهبة. أيقدر الموت ان يصيّر الانسان الخبيث المذنب ملاكًا. فاذن هذا الراي قلما يعزّي الخاطي. لانهُ سوف يجد دودةً تخرج من فساده لاتموت ابدًا بل تنهش قلبهُ وتعذبهُ عذابًا لايطاق الى غير نهايةٍ. ولو سلمنا ان الضمير هو نار الاخرة وليس نارٌ غيرهُ فمن يعرف عظم الالم الابدي الذي بهِ الضمير يعذب الخاطي. ان الخوف والتبكيت والانزعاج الهايل التي احيانًا تحيط بمضجع الخاطي عند الموت هي اشاراتٌ مخيفة الى ما يُنتظَر لهُ في الاخرة. فلا يستطيع العقل ان يعرف عظم مقدار الشرور الناتجة عن الخطية او مدة دوامها. ولكن بحسب مقدار حكم العقل لانرى نهايةً للتزايد في الرذيلة والشقاوة

والان ناتي الى البحث في رايٍ اخر يتكل عليهِ كثيرًا الكافرون ومن يشاركهم في هذه الامور. وهو ان العقل يعلمنا بان العقاب الذي تستوجبهُ الخطية تفرُّ منه بواسطة توبةٍ صادقة في الزمان المقبول. وقد اتخِّذ هذا المبدأ ركنًا عند جميع الكافرين بالوحي الذين يقرُّون بوجود الله. وبما ان كثيرين من الذين يريدون ان يُحسَبوا مسيحيين عقلاء يتخذونه ايضًا فقد اتسع اشتهارهُ بين الناس. وايضًا من حيث ان المغفرة والتوبة

مرتبطتان على وجهٍ اشد الارتباط بحسب تعليم الانجيل لايميز كثيرون بين الحقيقة المُوحَى بها وبين هذا التعليم المدَّعى به بانه من تعاليم العقل. ومن ثمَّ صار تمييز الحق من الضلال في هذه القضية امرًا عسرًا ومن يقصد ذلك يصادفه كثير من سوء الظن من قبل الكافرين وغيرهم. فنحرّض القاري ان يميز بين تعليم المغفرة بشرط التوبة كما يوجد ذلك في الانجيل وبين الراي المذكور كما يوجد عند الكافرين. لان بينهما فرقًا عظيمًا كما ستعرف

ان الراي الذي نحن في صددهِ هو ان القصاص الذى تستحقهُ الخطية يبطل بمجرد التوبة. ولكن هذا الراي قبل ان يكون مبدا نافعًا في العمل يلزمه شيئان. الاول ان يعرف جميع الناس ماهية تلك التوبة التي بها تحق لنا المغفرة. والثاني ان يكون لكل خاطئٍ استطاعةٌ عليها. ولزوم هذين الشيئين بيّن من نفسهِ. وانما تلحق الراي المذكور صعوبة عظيمة من قبلهما. فنريد ان نسأَل الذين يذهبون هذا المذهب عن التوبة التي يعلّم بها العقل هل هي قائمة بمجرد الحزن على الخطية ام هي اكثر من ذلك ومتضمنة اصلاحًا كليًّا في السيرة ليس متصلاً بالاعمال الخارجية فقط بل بعواطف القلب المحركة لها ايضًا. وهل العقل يحدد مقدارًا ما من الحزن ويعيّن مدة دوامه. وهل التوبة تنفع الخاطي الذي يرجع الى طريقهِ الاول في ارتكاب المعاصي. وايضًا نسال عن التوبة الصادرة عن مجرد خوف العقاب هل تكون صحيحة

والا فعن اي علةٍ يجب ان تصدر. ويجب ايضًا ان نعرف هل يمكن لمن شاخ في الخطية ان يتوب عن خطاياهُ حتى انهُ يبغضها ويتركها. فانه اذ يكون فكرهُ قد صار مملوًّا غلطًا وضميرهُ ميتًا وملكاتهُ محترقة فما الرجاء برجوعهِ وابتدآيهِ حيوةً جديدة. ومن اي طريقٍ نرتجي مثل هذا التغيير في شريرٍ خبيث او سكير فاحش. فان تغيير الزنجي لون جلدهِ اقرب من ان يتعلم الخير من اعتاد على الشر من زمانٍ طويل. ولا فايدة في ان يقال انهُ يستطيع التوبة ان شاء. وان لم يشأ فاللوم على نفسهِ. لان موضوع بحثنا الان هو انهُ هل يمكن العقل ان يعلمنا طريقًا للخلاص مناسبةً لحال الخطاة. فلا اعتبار لكون المانع في مشية الخاطي او غيرها. لان مجرد وجود ما يمنع عن الغاية المقصودة دليلٌ على الاحتياج الى شي اخر. واللوم انما يقع على نفس الخاطي ان كان من قبل عدم التوبة او خطية اخرى. فهو ملومٌ على كل مخالفةٍ والا فلا تحسب مخالفتهُ خطية. وان كان المراد اثبات اللوم على الخاطي فذلك قد تمَّ بدون عرض المغفرة عليهِ بشرط التوبة. لانهُ لو اطاع الناس الله طاعةً كاملة لحصلوا على الحيوة والسعادة بدون توبة. ولا يتعرض مانعٌ لهذه الاطاعة سوى ما يتعرض ايضًا للتوبة الحقيقية. فيكون في المذهب المشار اليهِ خللٌ ظاهرٌ لانهُ لايكشف عن واسطةٍ يقتاد الخاطي بها الى التوبة. لكن يعرض عليهِ المغفرة على شرط ان يعمل ما ينفر منه

قلبهُ كل النفور. والامر الواقع يوافق ما قد قلناهُ. فايُّ المتمسكين بالتعليم المذكور قد تاب عن خطيتهِ مع بقآيهِ على اعتقادهِ هذا. نعم انهُ يوجد منهم كثيرون قد تابوا وأُصلِحوا بواسطة الانجيل. ولكن لم يصر ذلك مرةً واحدة من تلقآء مبادي الكفر وتعاليمهِ. وان كان المبدأ لاينفع عملاً البتة فما فايدتهُ. ولماذا يتعظم حتى يُؤتَى بهِ برهانًا لعدم لزوم الوحي

ولكن من حيث ان المراد هنا بحث هذا الموضوع على وجه التدقيق والاستقامة. فلنسلّم لاجل المباحثة ان لجميع الناس معرفة بتلك التوبة اللازمة للغفران وان الجميع يقدرون عليها. فيكون المذهب ان جميع الخطاة يخلصون بواسطة التوبة من العقاب الذي يستحقونهُ لاجل خطاياهم وانهم عند الاحتياج الى التوبة يمكنهم استعمالها. فلو كان ذلك صحيحًا ومطابقًا للعقل لالتزمنا بالاقرار بعدم ضرورية الوحي. لانهُ لايمكن ان يوجد طريق للخلاص اسهل وابسط من هذا. ولكننا ننكر ان هذا التعليم هو من تعاليم الديانة الطبيعية او من التعاليم التي يُتوصَّل اليها بمجرد العقل وانما هو مستعارٌ على خللٍ من الانجيل وقد أُدخِل بين ارآء الكافرين مع انهُ مناقٍ لنور الطبيعة ومخالفٌ لاعظم مباديها التي منها ان الله لكونهِ عادلاً يجازي كل احدٍ بحسب صفاتهِ الادبية واعمالهِ. انه من عادة الكافرين ان يستعيروا ارآءهم من الكتابات المقدس بدون نسبتها الى اصلها الحقيقي وربما بدون

ان يعلموا من ابن اتوا بما قد اتوا بهِ. لان المولودين المتعلمين تحت نور الوحي اذا اتصل بهم الامر الى انكار الكتاب المقدس وجميع رسوم الديانة المسيحية الخارجية لايستطيعون ان يعتزلوا عن جميع المبادي الادبية العظيمة التي استفادوها من هذا المصدر على طرقٍ متنوعة. فان نور الوحي الالهي قد امتد واتسع في جميع البلاد المسيحية وقد ظهر فعلهُ في الشرايع والرسوم وطرق التعليم باسرها. حتى لايستطيع الانسان الان ان يهرب من تاثيرهِ اكثر مما يستطيع الهرب من نور الشمس. وكثيرٌ من الحقايق التي يدعي الكافر بكشفها بواسطة نور العقل انما هي مستعارة من الوحي الالهي. والا فكيف يعلَّل عن فضل مذاهب الكافرين العقلاء في ايامنا على مذاهب سقراط وافلاطون وشيشرون. فمثلهم مثَل من اضاء مصباحًا من اشعة الشمس ثم ادعى بانهُ قد اوجد ذلك النور بذاتهِ او انهُ قد كان من السراج الحقير الذي بيدهِ

ثم نقول انهُ ان كان يمكن الانسان ان يعرف بالحقيقة بعد ان اخطا انهُ يمكنهُ الخلاص من عقاب خطاياه بواسطة توبةٍ يقدر عليها فيمكن معرفة ذلك قبل ان اخطا. فعند ذلك تكون الشريعة مكتوبةً على قلبهِ مقيدة بعقاب على المتعدي ويكون ايضًا لهُ معرفة جلية من العقل بانهُ مهما ارتكب من القبايح واستحق من العقاب فيمكنهُ الخلاص من ذلك العقاب اي وقتٍ

شاء في حيوته بواسطة مجرّد التوبة. ولا يخفى ان ذلك يبطل شريعة الله من حيث هي قانون واجب ويسمح للانسان ان يفعل مهما اراد. واذ ذاك يمكنهُ ان يعزم متعمدًا ان يعصى خالقهُ حتى اخر نسمةٍ من حيوته ثم يخمد نار نقمته بواسطة التوبة. فانه وان كان العقاب صارمًا في نفسهِ لم يكن ذلك يعيق احدًا عن الطريق التي يميل اليها لانهُ يستطيع ان يتخلص منهُ اىّ وقتٍ شاء. فهل يطلب اجسر العصاة رخصةً اعظم من هذه. فلو دخل هذا المبدا وحدهُ في حكم الله الادبي لابطل سلطانهُ تعالى بالكلية

فهذه النتايج الناتجة من التعليم المشار اليهِ ضروريةٌ وهي تبرهن ان ذلك التعليم لا يمكن ان يكون مبدا عقليًا ومن مبادي الديانة الطبيعية. وربما يظن البعض ان هذا الاعتراض يطلق ايضًا على تعليم الانجيل الذي يعد بالمغفرة التامة لكل تايب حقيقي. وانما التعليم الانجيلي في التوبة مبني على اساسٍ غير اساس التعليم المذكور وهو في هذا الشان لا يضادُّ عدل الله البتة. لان جميع الخطايا المغفورة بشرط التوبة قد احتمل قصاصها نايب الخاطي. وهنا يظهر الاختلاف العظيم بين الديانة المسيحية وبقية الاديان. فان الديانة المسيحية تحافظ على مجد الصفات الالهية ومطابقة بعضها مع بعضٍ. واما الديانات الاخر فتظلم او تبطّل صفةً لكي تقوم صفةٌ اخرى. والنتيجة ان الطريق الانجيلي المعفو عن الخاطي النايب لا يتجّه الى ارخاء التزامنا

بالطاعة ولا الى تضعيف الحاسية بشر الخطية. واما المبدأ المذكور فنتيجته تبطيل شريعة حاكم الكاينات وسلطانه كما تقدم واباحة الطاعة والعصيان على حدٍ سوى. فالاول يوافق عدل الله بالتمام اذ لايصفح عن خطيَّةٍ لم يُكفَّر عنها واما الثاني فمضادٌ بالاستقامة لأَحَقّ مطاليب العدل

ثم يُعترَض ايضًا على هذا المذهب اي مغفرة الخطايا بسبب مجرد التوبة على وجهٍ اخر وهو ان ذلك بخلاف ما يظهر من الاختبار ومن مشاهدة الامر الواقع. فقد راينا اصحاب هذا التعليم يحسبون قصاص الخطية انه ليس الا نتيجتها الضرورية حسب قواعد الطبيعة. فهل تتغير هذه القواعد حال ما يتوب الخاطي حتى نرى اللص التايب المسجون والسكير التايب المريض لايزالان يحتملان عواقب الذنوب التي ارتكباها قبل توبتهما. لان التوبة لاتعيد الصحة المفقودة ولا الصيت الحسن ولا المال المبدَّد ولا الاصدقاء النافرين. فكيف يقولون حسب مباديهم ان عقاب الخطية يرتفع عند التوبة. وان قالوا مرادنا ان القصاص يُترَك في الاخرة يقال لهم من اين لكم معرفة ذلك. لان العقل لايستطيع ان يحكم بما في المستقبل الا قياسًا على مايحدث في هذه الحيوة. فالحكم المبني على ما يُشاهَد الان يضاد مذهب كون النتايج الشريرة الحاصلة من الخطية تنتهي عند الموت

ثم نقول ايضًا انهُ ان كان يُعفَى عن التايب فقط ويُعاقَب

الغير التايب بحسب استحقاق ذنوبهِ فيمكن ان يوجد الخاطي على حالٍ يليق بها قصاص الخطية بصرامةٍ حسب استحقاقها . واذ ذاك لا يُتخذ من جودة الله ورحمتهِ برهانٌ ينافي قصاص الخطاة مطلقًا . ثم لماذا يُظَن ان عدم التوبة وحدهُ يرمي الخاطي في خطرٍ من غضب الله وان التايبين وحدهم يخلصون من قصاص الشريعة . انه لا يجاب عن ذلك الا بان خطية عدم التوبة هي عظيمةٌ بهذا المقدار حتى انها تستحق هذا العقاب الشديد . او ان فضيلة التوبة هي عظيمةٌ بهذا المقدار حتى انها تكفّر عن اعظم الخطايا . ولكن لو فرضنا ان خطية عدم التوبة اعظم جرمًا من ساير الخطايا فلا يبان من ذلك انها وحدها تستوجب قصاصًا بل انها تستوجب قصاصًا اشد من غيرها . لانه ان وُجِد مبدا صريحٌ في الشريعة فهو هذا ان كل خطيةٍ يجب ان يُعاقَب عنها بحسب استحقاقها تمامًا . ولا يوجد سبب لابطال عقاب خطيةٍ صغيرة وقيام بعقاب كبيرة . ولاجل ذلك لا يكون عظم خطية عدم التوبة سببًا لعقاب الغير التايبين وحدهم . ولا يصح ان يكون هذا الفرق العظيم في معاملة الخطاة متوقفًا على فضيلة التوبة اذ يعسر تبيين ما نقوم بهِ فضيلتها الفايقة . لانهُ لا بد من ان نقوم فضيلتها اما بالطاعة واما بالالم المتضمنين ضرورةً في ممارسة التوبة . ولكنها لا نقوم بالطاعة اذ لو كانت الطاعة تامةً لما كانت اكثر مما تطلبهُ الشريعة الادبية في الزمن

الحاضر فلا تفي شيئاً عن ذنوبٍ قد ارتُكِبَت سالفاً. فانها لحقيقةٌ ظاهرةٌ من نفسها ان الطاعة حالاً لاتستطيع اصلاً ان تفي عمَّا ارتُكِب من المعاصي في ما مضى لان تلك الطاعة انما هي ذات المطلوب الان فلا فضل فيها. واذ ذاك فكيف تكفّر الطاعة المتضمنة في التوبة مهما كانت عظيمةً عن جميع الخطايا السالفة حال كونها ناقصة عما يجب ان تكون فضلاً عن خلوها من كل ما يزيدها قيمةً على بقية انواع الطاعة. ولا يمكن ان يُكفَّر عن الخطايا السالفة بآلام التوبة لان فضيلة هذه الآلام ناتجة عن الطاعة التي هي متعلقة بها والتي بدونها لاتكون حقيقتها ادبية. ما لم يقل احدٌ ان هذه الآلام يجب ان تحسب مساويةً لقصاص الشريعة. ولكن ذلك لايقال بالحق لان ما يساوي قصاص الشريعة هو ما يساوي العذاب الذي تقضي بهِ الشريعة في مقداره ومدة دوامه. نعم ان كان يسمح لاحدٍ ذي مقام اعلى وقيمة افضل بان يعذب مكان اخر فقد يُنقَّص العذاب بالنسبة الى الفرق بين شان النايب والمنوب عنهُ. مع ان قبول النيابة او رفضها يكون بحسب ارادة القاضي الاعلى. ولكن في ما نحن في صددهِ نرى المستحق العذاب هو المتالم باوجاع التوبة. فكيف يصح ان يكون حزن بعض ساعات او بعض ايام مساوياً لعقاب اقبح المعاصي. وناهيك عن شعور الخاطي التايب واقرارهِ بانهُ لم يزل مستحقَّ عذابٍ. لانه لم يتب احدٌ قط توبةً حقيقية وهو

يظن انهُ قد كفَّر بها عن ذنوبهِ تكفيرًا تامًّا. بل يعرف حق المعرفة ان هذه الاقذار لا تُغسَل ببعض دموع ندمية. ولا شيء يضاد المذهب المشار اليهِ اكثر من حاسيات التايب توبة حقيقية. فان كل تايبٍ مثل هذا يحقق انهُ مستحقٌّ قصاصًا اعظم من الاحزان التي قد حدثت عليهِ بالتوبة

وانما للكافرين برهانٌ اخر ربما يكون احسن مما سواهُ لاثبات وجود تعلُّق موافق للعقل بين التوبة والغفران. وهو ان جميع الصالحين يقرُّون بان العفو عن المذنبين الينا عند التوبة هو فضيلة. ولا يستطيع المسيحيون ان ينكروا ان ذلك من الواجبات الادبية لان العهد الجديد يامر به بتكرارٍ وتدقيق على انهُ امرٌ جوهري. فهذا جميعهُ مسلَّمٌ بل فضلاً عن ذلك نقرُّ بانهُ واجبٌ على المسيحيين ان يسامحوا كل من يوذيهم تابوا ام لم يتوبوا. لانهُ يُطلَب منهم ان يحبوا اعداءهم ويحسنوا الى من يبغضهم ويباركوا من يلعنهم ويصلُّوا لاجل من يضطهدهم. ولكن ذلك مباين جدًّا لما نحن نتكلم فيهِ الان ومبني على مبادي اخر. فانهُ ليس من واجبات المسيحيين ان يعاقبوا من يخطي اليهم بما يستحقهُ ولو وقع عليهم الضرر. بل قد نهاهم الله عن الانتقام وعن مجازاة الخطاة بحسب خطاياهم. وذلك لا لان قصاص الخطاة بما يستحقونهُ مُغايرٌ للجودة الادبية بل لانهُ حقٌّ مختص بسلطان رب الكاينات وباريها. حتى ان الكتب المقدسة في

تلك الايات نفسها التي تنهي المخلوق عن الانتقام تنسبهُ بكلامٍ صريح لايقبل الشبهة الى الاله الضابط الكل بقولها لي النقمة انا اجازي يقول الرب. ولذلك ان جاع عدوك فاطعمهُ وان عطش فاسقهِ لانك بذلك تجمع على راسهِ نارًا. فان كان التزام المسيحي بالعفو عمن اساء اليه يثبت شيئًا فهو يثبت ان الله لايعفو للتايب فقط بل لكل خاطي في اي درجة كان من العصيان والتمرد. ولكن هذه النتيجة مغايرةٌ لما نحن فيهِ ولا يعتقد بها الكافرون بالوحي انفسهم

ثم انهُ يحتجُّ ايضًا بان التوبة متعلقة بالغفران طبعًا من عادة الحكام الارضيين بالعفو عن المجرمين. ولكن لامشابهة بين الامرين في الحقيقة لانهُ وان كان مناسبًا في الاحكام البشرية ان يوجد فيها من يستطيع العفو لم توجد دولةٌ قط تعفو عن كل الذنوب بشرط التوبة. ولا يتعلق استعمال الرحمة نحو بعض المذنبين بهذا المبدا اصلاً. فان سبب العفو هو اما كون اجراء حكم الشريعة في بعض الاحوال غير مطابق للعدل المنصف واما طلب حسن السياسة حين يكون عدد المذنبين كثيرًا ان يُعاقَب منهم من هو اكثر جرمًا فقط عبرة للاخرين. واذ ذاك يبان ان ضعف الاحكام البشرية انما هو السبب لدفع عقاب الشريعة. وحاشا ان يدخل ذلك في الحكم الالهي. ثم ان في اجراء حكم الشرايع البشرية لايُسال ابدًا هل المذنب تايب

او غير تايبٍ حتى انهُ ولو تحققت توبتهُ لايُرفَع بذلك عنهُ العقاب البتة. فالشريعة تعاقب اللص والقاتل التايبين كما انها تعاقب الغير التايب. وان عمل في بعض الاحوال الحكام القادرون على العفو بحسب هذا المبدا اليه مسامحة المذنبين عند ما تظهر عليهم علامات التوبة فذلك لايبرهن الا ان اصحاب السلطان يسهون احيانًا. لان لاريب ان اجراء هذا المبدا في كل الاحوال يبطل كل شريعةٍ لامحالة. نعم يصح ذلك لو كانت غاية القصاص هي خير المجرم. ولكن طالما كان خير الجمهور هو الغاية العظمى في القصاص لايصح عرض الغفران على الذين يتوبون حتى ولو اصلحوا سيرتهم

فقد ظهر مما تقدم ان التعليم بعلاقةٍ بين التوبة والغفران في حكم الله الادبي لم يصدر من نور الطبيعة بل هو من الانجيل ومن ثمَّ ان كان في ذلك سبيل للعفو يكون بواسطة كفارة المسيح لا بواسطة فضيلة التوبة او مكنتها في رفع جرم الخطية. وان صح ما قيل فنكون في اشد الاحتياج الى وحي الهي يعلمنا بانهُ تعالى قد شاء ان يقبل التايب اليهِ ويهدينا الى شروط الحصول على ذلك. ومن ثمَّ نتعلم معرفة حال جميع جنسنا الشقية والمنة التي لله علينا لاجل الانجيل. اذ جعلنا مديونين لرحمته المجانية لاجل الكفارة العظيمة بموت المسيح بدلًا عن العالم التي بها يعفو الله عن الخطاة التايبين

الفصل الخامس

في ان اعلان الوحي من الله ليس امرًا وقوعهُ غير محتمل ولا غير موافق للعقل. ولذلك لايكون ظهور فعل الهي بالمعجزات لاثبات الوحي امرًا وقوعهُ غير محتمل ولا غير موافقٍ للعقل

ان كل من يومن بوجود الله لاينكر امكان اعلان وحي من الله. ولا يُعتقَد ايضًا بان الوحي من حيث هو وحيٌ مضاد لصفات الله الادبية. لان افادة خليقة الله العاقلين زيادة معرفةٍ ليس بمغايرٍ لحكمتهِ تعالي او لجودته او لقداستهِ. وغاية الوحي الوحيدة انما هي زيادة الانسان في الحكمة والقداسة والسعادة. فماذا يوافق ما نعرفه من صفات الله اكثر من ذلك

ثم ان امكان الانسان ان يستفيد من الوحي حقيقةٌ ظاهرة لاحتياج الى اثباتها. لان مهما ظن البعض في كفاية الديانة الطبيعية عند ما تُفهَم جيدًا ويُعمَل بموجبها فالجميع يلزمهم الاقرار بان اكثر الناس في الواقع لم يكن لهم اطلاعٌ كافٍ في امر الدين. وذلك لما ذكرنا في الفصل السابق ان تاريخ العالم في كل عصرٍ ودهرٍ يثبت الجهل لاكثر الجنس البشري حتى في تلك الامور

نفسها التي اصحاب الديانة الطبيعية يقرّون انها من اهمّ الامور الدينية واعظمها

ثم انهُ لايبعد عن العقل ان الله لما خلق ابوينا الاولين اعطاهما من المعرفة ما كان لازمًا ليس لراحتهما فقط بل لحفظهما ايضًا . وكذلك اذ كانا بدون خبرةٍ ولم يكن على الارض من يعلمها شيئًا يقرب الى الظنّ ان الخالق الجوّاد اعلن لهما ما كان لازمًا من المعرفة لقضاء حوائج الحيوة . واما رأي البعض ان الانسان كان اولاً حيوانًا اصمّ غير ناطق يفرق قليلاً عن الوحوش البرية ثم استنبط النطق والصناعات بدون مساعدةٍ او وحي من الله فقد رددنا عليهِ واظهرنا فسادهُ

ثم ان قبل الانسان من الله في البداية شيئًا من المعرفة اللازمة لحالتهِ فما ذلك الا وحيٌ . وان احتاج بعد ذلك الى معرفةٍ اكثر في امرٍ متعلق بسعادتهِ فما المانع من اعلان تلك المعرفة لهُ ايضًا من قِبَل الخالق الجواد الذي لايهمل خليقتهُ . ووقوع هذا الاحتياج الكافرون بالوحي انفسهم لاينكرونه . لانهم يعرفون ان عموم الناس سقطوا زمانًا في عبادة الوثن وفقدوا معرفة الاله الحقيقي فاخذوا في عبادة انوار السماء والوحوش ونحوها مما لايعقل واستنبطوا طقوسًا باطلة غير موافقة للعقل بل فاحشة ونجسة . ثم انتقلت هذه العبادة من جيلٍ الى جيل وغاص البنون في الجهل اكثر من الاباء .

وكونه من الممكن ان حاكم البرية العادل يترك الناس في التمسك بما استنبطوه واحتمال عواقب جهلهم هو امر لانكره. ولكن يانرى الا يوافق حكمتهُ وجودته ان يستعمل وسايط غير اعتيادية لانتشالهم من هذه الحالة الدنية الشقية. أولا يسلّم كل عاقلٍ من المقرّين بوجود الله بان ايجاد مثل هذه الوسايط لترجيعهم الى الديانة الصحيحة هو امرٌ مشتهىً. فان كان سقوط الانسان من رضى خالقهِ يحوج الى وحي اخر أفلا يكون ايضًا اعلان المعرفة المحتاج اليها جودًا عظيمًا. لماذا يُظَن خروج الله عن طريق اعمالهِ الاعتيادية لاتمام غاياتٍ جليلة وثمينة امرًا لايوافق العقل. واي شي في قوة الطبيعة محرّم بهذا المقدار حتى انهُ لايجوز ان يتغير مرةً واحدة لاجل اي غرضٍ كان. ان السبب الموجب لدوام الشرايع الطبيعية على حالٍ واحدة انما هو كون ذلك لخير الانسان. فاذا كان خيرهُ يطلب تغييرًا في النظام الواقع فاذا يجعل ذلك غير موافقٍ للعقل. ان خالق البرية في حكمهِ على العالم لم يقيد نفسهُ باتباع نظامٍ غير متغيرٍ. وربما ياتي وقتٌ بهِ يرى مناسبًا ان يغير النظام الحاضر باسرهِ وكما اعطاهُ بدايةً ممكن ان يجعل لهُ نهايةً. نعم ان الدوام على حالٍ واحدة مناسب لكي يعلم الناس ماذا يجب ان ينتظروهُ ولكي يثقوا باستعمال الوسايط لتحصيل حوايجهم. ولكن التغيير احيانًا عن هذه الحال الدايمة لاينعرض اصلاً للخير الناتج منها. وهذه الحقيقة

ظاهرةٌ حتى انها كانت تستغني عن هذا الشرح الطويل لولم يكن الكافرون قد القوا بسفسطتهم غشاوةً مظلمةً عليها حتى صار البعض يحسبون تغيير شرايع الطبيعة امارة السوء والجهل وعدم الثبات بخلاف الحق الذي نحن قاصدون اظهارهُ الان. وهو ليس اثبات لزوم الوحي بل اثبات كون الوحي ليس بمضادٍ لمقتضى العقل وايضًا انهُ امرٌ مُشتهًى للانسان جدًّا وموافق لصفات الله الكاملة وللاصول التي بها يسوس الله العالم

ثم اذا فرضنا ان الله قصد اعلان ارادتهِ للانسان فكيف يتم ذلك على احسن منوال. لاشك انهُ يتم على احدى طريقين. اما بالهام كل انسان بما يحتاج اليه من المعرفة واما بالهام بعض الاشخاص مع الامر بان يعلموا الغير ما أُنزِل عليهم. فربما كان الوجه الاول اكثر تاثيرًا واما الثاني فهو اكثر موافقةً لباقي اعمال الباري تعالى. نعم قد كان يمكن ان الله يهب الانسان عقلاً تامًّا عند ما خلقهُ اولاً ولا يتركهُ محتاجًا الى تعليمٍ وبالنتيجة لايدعهُ معرضًا للغلط. ولكن لم يفعل ذلك ولو فعله لم يكن من باب الوحي الذي نحن في صدده. فقد قضى الله بان العقل لايبلغ الى ما يبلغ اليهِ الا رويدًا رويدًا بعد تهذيبٍ طويل. واذا تُرِك لايبلغ اصلاً الى درجةٍ عالية. واما الوحي فلا نقدر ان نحكم حكمًا قاطعًا على الوجه الاوفق لانزاله ولكن نتيقن ان الله اذا اراد ان ينزل وحيًا للانسان كان يثبتهُ ببيناتٍ يعرف منها كل

طالب للخلاص انهُ منهُ تعالى والا لما افاد شيئاً. فما هي البينة الكافية لكون الوحي منه تعالى. انه لابد ان تكون شيئاً لايمكن تزويرهُ بل يظهر بهِ الله نفسهُ. ولا يتم ذلك الا باستعمال قوتهِ الالهية او باظهار معرفتهِ الفائقة اي بالمعجزات او بالنبوات التي هي نوع من المعجزات او بهما جميعاً. فاذن وقوع المعجزات ليس بابعد من انزال الوحي. واجتماع هذين الامرين موافقٌ للعقل واذا وجدنا الواحد فلا يبعد وجود الاخر

لاينكر انه لابد في وحي من الله من وجود بيناتٍ في نفس مضمون الوحي لكونهِ منهُ تعالى. وهذه البينات تسمى البينات الداخلية. وانما ذلك لايشعر به حالاً الواقف عليه بل يحتاج الى اطّلاعٍ كافٍ. والحال انه عند نزول الوحي اولاً يحتاج الى بينةٍ ظاهرة للحواس ومفهومةٍ لجميع العقول مثل المعجزات. وايضاً ان البينة الداخلية لكي تلحظ وتفهم تحتاج الى حالةٍ من الحواس الادبية في مَن يقف عليه مناسبة لقبول تلك البينة وبدونها لاتظهر ولا تقنع احداً. والبينة الخارجية ليس فقط يفهمها كل عاقلٍ بل هي مناسبة لاقناع كل انسانٍ سواءٌ كان شريراً ام صالحاً

واذ ذاك تكون المعجزات اعظم برهانٍ لاثبات الوحي وهي ختمهُ الحقيقي اذ هي شهادة الله لهُ. لاننا لانستطيع ان نتصور شيئاً يشير الى قدرتهِ وحضورهِ كتوقيف الشرايع الطبيعية وهو شيء لايستطيع على عملهِ اخر. ولهذا عند ما يدعي احدٌ بنزول

وحي عليهِ منهُ تعالى ويصحب كلامهُ بمعجزات من القدرة الالهية الفايقة يتحقق الجميع ان الله معهُ وانهُ معلم مرسل من الله . والا لما استطاع على عمل المعجزة مالم يرسل الله يمينهُ بالمعجزات لاثبات تعليم كاذب .

نعوذ بالله من هذا الكفر الشنيع

obeikandl.com

الفصل السادس

في امكان اثبات وقوع المعجزات بواسطة الشهادة

المعجزة حادث محسوس يقع مخالفًا لمجرى شرايع الطبيعة المعهودة. وهي من فعل الله مصحوبةً بتعريفٍ سابق ان صنيعها بواسطة قدرتهِ لتكون بينةً لتعليمٍ او لسلطان انسانٍ مثبتةً بانهما منهُ تعالى. والطبيعة مجموع خلايق تفعل بعضها في بعضٍ بحسب قواعد معلومة قد شاءت الحكمة الغير المتناهية ان تجري بها عملها. وقد سمى الفلاسفة هذه القواعد شرايع الطبيعة. وفي الكتب المقدسة يُعبَّر عنها برسوم السماء والارض. وما يحدث بموجب هذه الشرايع موافقًا لنظام الامور الاعتيادي يسمى حادثًا طبيعيًا. واما توقيف هذه الشرايع او حجزها او الخروج عنها ظاهرًا مصحوبًا بتعريف سابق بان ذلك موافق لارادتهِ تعالى ومصنوعٌ بقدرتهِ فهو معجزة. فابراز الحبوب مثلاً بطريقة النبت انما هو بحسب الشرايع الطبيعية ولكن لو وقعت من السماء مثل المطر لكان ذلك معجزة. وكذلك من شرايع الطبيعة ان الميت لا يرجع الى الحيوة فلو رجع لكان ذلك معجزةً. وعلى ذلك يجب الاحتراز في التمييز بين المعجزة وبين الباهر في العظمة او النادر

وقوعهُ. نعم ان المعجزة لابد ان تكون نادرة الوقوع ولكن قد تحدث وقايع نادرة الوقوع وباهرة ولا تكون معجزات. فظهور نجم ذي ذنب مثلاً نادرٌ وكذلك زعازع الرياح العاصفة. ولكن لاتوجد في هذه ولا في تلك مخالفةٌ لشريعةٍ من الشرايع الطبيعية. ولا يخفى اننا لانعلم بكل ما يمكن حدوثهُ حسب تلك الشرايع ولكن حدوث حادث يقاس على قانونٍ مهما كان نادرًا وكيفيته غير معروفة شيءٌ ومخالفة القانون ظاهرةً شيء اخر. فبواسطة هذه المخالفة لما نعلم انهُ شريعة طبيعية نميز المعجزة عن الحوادث الطبيعية. وهذه الشرايع نتعلمها من اختبار متّسع ومطّرد بهذا المقدار حتى يحصل منهُ يقينٌ بثبات نظامها كاليقين الحاصل من شهادة حواسنا. ونتصرف بموجب هذا اليقين في حوايجنا اليومية ونُبنَى عليهِ جميع استنباطات الصنايع واكتشافات العلوم الطبيعية. ويلزم ايضًا بالضرورة للمعجزة ان تُصحَب باعلامٍ سابق بانها تُعمَل بحسب ارادة الله وبواسطة قدرتهِ لاثبات تعليمٍ او للشهادة على سلطان احدٍ بانه مرسل منهُ تعالى. وهذا الاعلام لازمٌ لكي لايلوح عليها انها حسب مجرى العادة. ويجب ايضًا ان تكون فوق حساب البشر وقدرتهم لكي لايظن انها نتيجة نظرٍ سابق او علمٍ كالكسوف والخسوف ولا انها من استنباط الحذاقة او الفراسة البشرية كاعمال اللاعبين الماكرين

ولا يُلتفَت الى ما يقال كثيرًا ان المعجزة فايقة ادراكنا وانها لذلك مضادة للعقل. فان امكان وقوع المعجزات بحسبما وصفنا ليس بمضاد للعقل ولذلك يحتمل تثبيته بالبرهان العقلي. ومع انهُ لا يمكننا ان نشرح بالتدقيق عن كيفية عملها لكونها صادرة من فاعلٍ غير منظور يفوقنا في الحكمة والقدرة لا يجب ان ننكر وقوعها اذا شهدت بهِ حواسنا. فان كل ما نراهُ انما هو على نوعٍ يفوق ادراكنا. كما اذا غرسنا غصنًا في الارض فاننا نراه بعد سنين قليلة قد صار شجرة ولكننا لا نعلم طريقة اخذهِ الغذاء من الارض ولا كيفية نموهِ. واذا نظرنا حولنا نرى الغاب احيانًا يهتز بالعواصف واخرى يلاعبهُ النسيم وتارةً نراهُ مورقًا وتارةً عاريًا. ونعلم ان هذه الاحوال تابعة لاختلاف الفصول والفلاسفة قد اكتشفوا بعض عللها القريبة. ولكن لا يعلم احد فهم باي طريقةٍ تجري هذه العلل حتى تُحدِث هذه الحركات الطبيعية. وعند ما تقوم العاصفة فلماذا لا تدوم وعند سكون الريح ماذا يحرك العاصفة لا علم لنا بذلك. فاننا بعد اعمق ابحاثنا في الاسباب الاولى نلتزم بان نكتفي بنسبة الجميع الى قدرتهِ تعالى. ولكن مع اننا لا ندرك ابسط هذه الامور لا تؤثر فينا لكثرة الالفة عليها ولانها تجري مجرًى اعتياديًا ونراها كل يومٍ. والحال انه لو كانت مخالفةً لمجرى الطبيعة المالوف مع كون فهمها ليس باعسر من فهم ما يجري بحسب المالوف من الطبيعة لاندهشنا منها

ونسبناها حالاً الى فعل الله . مثلاً عند ما نرى صبياً يصير رجلاً ثم عند خروج الروح من البدن يتحول الى الفساد لانعجب من ذلك لاننا نراهُ كل يومٍ . ولكن لو رأينا رجلاً انتقل من المرض الى الصحة بواسطة كلمة او ميتاً رجع الى الحيوة بمجرد قول قايلٍ لسمّينا ذلك الامر الغريب معجزةً لخروجهِ عن طريق العادة . مع ان لاهذا ولاذاك في حيّز ادراكنا وكلاهما من الله لانهُ ليس اخر يستطيع فعلهما

فهذه حقيقة البينة الناتجة عن المعجزات . وعند ما يُشهَد بها شهادةً كافية لاوجه لنا لانكارها لمجرد كونها قد صُنِعَت منذ دهورٍ عديدة اكثر من انكارنا حوادث العناية الالهية المعتادة التي حدثت قبل زماننا لان هذه الحوادث نفسها ربما لاتحدث ايضاً الان . فمجرى الطبيعة الاعتيادي يثبت وجود الله وعنايتهُ واما هذه الاعمال الغير الاعتيادية فتثبت رسولية صانعها من قبلهِ تعالى وصحة تعليمه

ثم انهُ قبل ان نحكم على حادثةٍ بانها معجزة حقيقية يجب ان نعرف ظروفها مع شيءٍ كافٍ من احكام الطبيعة الاعتيادية . لاننا لانستطيع الحكم على ما يتعلق بامورٍ طبيعية مجهولة هل هو حسب الطبيعة ام مخالفٌ لها . واذ ذاك لايتعلق تصديق المعجزات بجهلنا كما قال البعض . بل هو يطلب علماً سابقاً بطور الطبيعة لايصح الحكم عليها بدونهِ وبهِ تظهر صحة وقوعها

ظهورًا لا يقبل الريب. مثلاً لو شفى طبيبٌ اعمى حالما طلى عينيهِ باستحضارٍ كيماوي لم نرهُ قبلاً ولا علم لنا البتة بماهيتهِ وخاصياتهِ لكان الشفاءُ عندنا معجبًا. غير اننا لا نستطيع الحكم بانه معجزة لانهُ قد يكون من تاثير العلاج بحسب الطبيعة. ولكن لو شفاهُ بمجرد امرهِ لهُ ان يبصر او بطلي عينيهِ بتفلهِ لقلنا ان ذلك معجزةٌ عن يقين لعلمنا الاكيد بانهُ ليس للصوت البشري ولا للتفل البشري قوة مثل هذه بحسب مجرى الطبيعة في امراض العين. وكذلك لو بلغ امر مريض الى ان اشرف على الموت فحضر طبيبٌ وشفي على يدهِ بعد العلاج لم يُحسَب ذلك معجزةً بخلاف ما لو واخذ الطبيب بيدهِ فاقامهُ صحيحًا بدون واسطة العلاج

واذ كانت المعجزات حوادث مخالفة لمجرى الطبيعة المعهود فهي بالضرورة لا تصنع لاجل امرٍ يسير. لانهُ اذ كانت الشرائع التي بحسبها تتصرف المخلوقات ناتجة عن حقيقة هذه المخلوقات وتعلُّق بعضها ببعض فلا تتغير من تلقاءِ ذواتها. واذ كان الله يحكم على العالم بموجبها وهو الذي وضعها فهو وحدهُ يستطيع ابطالها. ولا يغيرها الا الله او رسولٌ منه

ثم المعجزة انما تكون برهانًا لسلطان فاعلها او لصحة تعليمه عندما يُقصَد بها اثبات ذلك قصدًا ظاهرًا. فان المعجزة انما هي شهادة الله وبما انهُ لا يمكنهُ تعالى تقديم شهادةٍ لغير الحق ولا يجوز لنا تصوُّر ذلك البتة فعندما تُصنَع معجزة حقيقية لاثبات

امرٍ نعلم ان ذلك الامر حقٌ لان الله قد شهد لهُ . فاذ كانت معجزات موسى والمسيح قد صُنِعَت لاثبات كون رسوليتهما وتعاليمهما من الله نوقن بانها كانت من الله بالحقيقة

ولكنه قد اعتُرِض على هذا القول اولاً بان المومنين بالكتاب المقدس يحكمون بالدور الملتوي على انهم يثبتون التعليم بالمعجزة والمعجزة بالتعليم . ثانيًا بان الكتاب المقدس نفسهُ يشهد بعمل المعجزات لاثبات الكذب

فعلى الاعتراض الاول نقول اننا لو زعمنا عن جميع تعاليم الديانة انه لايمكن اثبات كونها من الله الا بالمعجزة ثم اتخذنا تلك التعاليم برهانًا لكون المعجزة من الله لكان الاعتراض صحيحًا . ولكنه قد غلط المعترض غلطًا عظيمًا بانه لم يميز بين التعاليم التي نثبتها بالمعجزات والتعاليم التي بها نمتحن المعجزات . والحال ان بينهما فرقًا عظيمًا . فان تعاليم الديانة الطبيعية العظمى تشهد لها اعمال الطبيعة ذاتها ولاتحتاج الى شهادة المعجزات . ولم يصنع الله معجزاتٍ مثلاً لاثبات الفرق بين الحرام والحلال فلو اراد انسانٌ ان يثبت وجوب العدل والعفة على البشر وجُرم القتل والزنا لما استعان بمعجزاتٍ . وقد كانت هذه الواجبات ونظيرها مما يحتم بهِ الانجيل واجباتٍ قبل مجيء السيد المسيح وكنا قد حصلنا على معرفتها بدون مساعدة المعجزات او الوحي . فاننا بمثل هذه التعاليم نمتحن المعجزات ولكن التعاليم التي تثبتها المعجزات

هي تعاليم النصرانية الموحى بها حديثًا التي لم تكن معروفةً ولا يمكن ان يتعلمها العقل البشري من اعمال الطبيعة فقط. ومن هذه التعاليم الفداء والخلاص بالمسيح وتجديد القلب وتطهيرهُ بروح الله. فلا نأتي بهذه التعاليم لاثبات صحة المعجزات ومصدرها الالهي. فكيف يتهمنا الخصم باثبات التعاليم بالمعجزات ثم المعجزات بالتعاليم

اما الاعتراض الثاني ان الكتب المقدسة نفسها تقول انه قد صُنِع بعض معجزات لاثبات الكذب كالتي صنعها السحرة بمصر وساحرة عين دور والشيطان الذي جرَّب المسيح فنقول عليه اننا لو سلمنا بان سحرة مصر عملوا معجزاتٍ فانما كان ذلك باذن الله ليكون نجاح امرهِ اخيرًا على يد موسى اعظم في اذهان الجمهور واعجب لاعين البشر. ونرى ان ذلك قد تمَّ بالفعل حينما السحرة صمتوا والتزموا ان يعترفوا بان اعمال موسى انما كانت اعمال اصبع الله. ولكن الحق انهم لم يعملوا شيئًا من المعجزات لان جميع ما عملوهُ بحسب قول موسى قد كان بسحرهم. والجميع يعلمون الان انهُ ولئن كان الضعفاء العقول والجهلاء ينغشون فبالسحر لا تُعمَل معجزاتٌ

واما ساحرة عين دور فلم تعمل ولم تنتظر معجزةً. وهذا ظاهرٌ من اندهاشها وخوفها عند ظهور صموئيل. فان شاول اذ كان منتظرًا معجزةً نظر الى صموئيل بدون تحيُّرٍ واما الساحرة

فاذ لم تنتظر شيئاً تحيرت وخافت. فلا يبان من خبر الكتاب ان هذه المراة كان لها قدرةٌ على احضار صموئيل الذي اراد شاول مشورته. لكن قبل ان استعدت لتمكر بشاول بحرها ظهر صموئيل مرسلاً من الله وحكم على شاول بالموت فتحيرت المراة واندهلت. ولا ريب ان صموئيل كان مرسلاً من الله اذ كان ما بلَّغهُ لشاول متعلقًا بامرٍ مستقبل وذلك مختصٌّ بالله

واما امر الشيطان الذي قال الانجيليون انهُ اصعد يسوع المسيح الى جبلٍ عالٍ جدًّا واراهُ جميع ممالك العالم ومجدها بلحظةٍ من الزمان فقد سماهُ احد المستهزئين بالكتب المقدسة اعجب المعجزات. ولكنه ليس بمعجزةٍ اصلاً اذ لم يُقَل ان ذلك لم يكن من القدرة الطبيعية او انهُ كان بدون رضى المسيح واختياره. فان الكلمة المترجمة بالعالم كثيرًا ما تعني في اليونانية بلادًا او اقليمًا والمعنى انما هو ان الشيطان اراه يسوع المسيح ممالك اليهودية وعلى ذلك لايكون شيء من المعجزة

فينتج مما سبق ان فايدة المعجزات الحقيقية انما هي الدلالة الصريحة على امرٍ انه من الله. والكتب المقدسة نفسها تشير الى ان هذه هي غاية المعجزة اذ قد احتج بها موسى والانبياء والمسيح ورسلهُ شهادةً على ان رسوليتهم منهُ تعالى. ومن ثمَّ نستنتج ان فاعل المعجزة هو رسولٌ من الله

ثم ان المعجزات على الاطلاق وقايع في الخارج وهي تحتمل

البرهان بالبينات الصادقة كغيرها من الحوادث المحسوسة . فالذين شاهدوا معجزات موسى ويسوع المسيح مثلاً كانت مشاهدتهم برهاناً كافياً لهم على نزول الوحي على موسى والسيد المسيح . وان قيل يجب ان يكون الشهود مطّلعين على نظام الطبيعة لكي يمكنهم الحكم بان الامر الواقع مخالفٌ لهُ فلا ريب ان الامر كان كذلك من جهة مَن شاهد المعجزات المذكورة في الكتب المقدسة . لان كل ذي فهم اعتيادي لا يمكنهُ الغلط في معرفة انهُ عند ما شقَّ موسى البحر الاحمر ويشوع نهر الاردن ومرَّ بنو اسرائيل فيهما والمآة متعرمٌ على الجانبين كان ذلك مخالفاً لنظام الطبيعة . وكذلك شفآة الامراض واعطآة الاعمى البصر والاصمّ السمع والاخرس النطق ولاسيما احيآة الجثة المنتنة بمجرد الامر من غير استعمال واسطة من الوسايط

واما الذين لم يشاهدوا المعجزات باعينهم فتحتمل عندهم ايضاً البرهان بالشهادة كغيرها من الحوادث . فبعد ان تحققنا كفاية الشهود بمعرفة الواقع لم يبق علينا الا النظر في صدق اخبارهم . ومعرفة ذلك انما هي بحسب المبادي التي يتوقف عليها تصديق الشهادة على وجه العموم . وبما ان اصحاب الكفر قد استندوا على هذا الباب لانكار حقيقة المعجزات المذكورة في الكتب المقدسة راينا ان نضع شيئاً من الوسايط للحصول على معرفة قيمة الشهادة البشرية

فلاجل معرفة قيمة شهادةٍ قد وُضِعَت هاتان القاعدتان البسيطتان. الاولى ان الشهادة يحق لها التصديق بحسبما يمتلك الشاهد فرصةً لتحقيق ما يشهد بهِ ويكون خاليًا من غرضٍ يميلهُ الى ان يغشَّ الاخرين. فان كان المخبر على احسن حالٍ للوقوف على صحة الامر ولم يظهر عليهِ الغرض للمكر بنا فعلينا تصديق خبرهِ. والا فنتاخر عن التصديق بحسب ما يداخلنا من الريب في استيفاءِ هذه الشروط. والثانية ان برهان الشهادة يقوى كلما كثر عدد الشهود في قضيةٍ واحدة وكانوا ممن يُوثَق بشهادتهم. وان برهان الشهادة يضعف كلما كثر عدد الذين تسلسل الينا ذلك الخبر بواسطتهم. ويقال للنوع الاول شهادة مستقلة وللثاني شهادة منقولة. وايضًا مهما كان من النقص في فردٍ من افراد الشهود المستقلين بانفسهم فشهادة الاخرين تجبرهُ. واما الشهود الناقلين فالنقص في شهادتهم يزيد بالنسبة الى كثرة عدد الذين تسلسل الينا الخبر بواسطتهم

ثم العلامة التي بها تُعرَف صحة خبرٍ اخبر بهِ شهودٌ مستقلُّون بانفسهم يوثق بشهادتهم هي اتفاقهم في الامور الكلية واختلافهم في الامور الجزئية او اقلهُ تخبيرهم بها على طرقٍ متنوعة. وسبب ذلك انهم يلتفتون سويةً الى الامور الكبرى فتوثر في كل فردٍ منهم على حدٍّ سوى واما الامور الجزئية فلا يلتفت اليها جميع افرادهم التفاتًا واحدًا ولهذا تضطرب اخبارهم فيها. واما اذا اتفق

شهودٌ في جميع قضايا خبرٍ ما كلية كانت امر جزئية وفي ترتيب الخبر وطريق التعبير عنهُ فذلك دليلٌ على اتفاقهم السابق في الاخبار بذلك الخبر عينهِ فتقع عليهم الشبهة بانهم قد تحركوا الى تأدية الشهادة بامرٍ ينقص من قيمتها . وايضًا اذا تعلموا ظروفًا بعضهم من بعضٍ فلا يُحسَبون شهودًا مستقلّين بانفسهم . ولا يخفى ان كل التواريخ التي كتبها المورخون الذين يوثق بصدقهم تتفق في الامور الكلية على حدٍّ سوى ولكنها لابد من ان تختلف في الامور الجزئية

ثم نُعتبَر ايضًا حقيقة الامر المطلوب منا تصديقهُ . فاننا نطلب اكثر او اقل من البينات بحسب ابتعاد وقوعه من دايرة اختبارنا والمشابهة بما نعرفه . ففي مقدار البينات المطلوبة تختلف الامور اختلافًا كليًّا فمنها ما يُحتمَل وقوعهُ بكل سهولةٍ ولا يحتاج برهانًا قويًّا ومنها ما لا يمكن تصديقه مهما كانت الشهادة بهِ قوية لمخالفته ما نعهدهُ من اطوار الطبيعة مخالفةً تنفي التصديق . مثلاً لو اخبرني غلامي انهُ اذ كان مجتازًا ببعض الاماكن راى احد اصحابي وكنت عارفًا بان لذلك الصاحب عملاً في تلك الناحية وكنت واثقًا بصدق غلامي لصدقتهُ حالاً حتى لو كان يعنيني ذهاب صاحبي الى تلك الناحية لكنت اتصرف من غير تاخير بمقتضى خبر غلامي . ولكن لو اخبرني ذلك الغلام نفسهُ انهُ اذ كان مجتازًا بذلك المكان راى صاحبًا اخر من اصحابي

وكنت عارفًا بانهُ قد توفي لما صدقتهُ ولئن كان الامر في نفسهِ ليس مستحيلاً . ولكن لو اخبرني هذا الخبر عشرة انفار من معارفي ومعارف المُخبَر عنهُ وكانت اخبارهم غير متعلقة برواية بعضهم عن البعض وكانوا من ذوي الصدق والمعرفة لامكنني تصديقهُ . فينتج من ذلك ان المعجزات تحتاج الى شهادةٍ أقوى مما يُطلَب للامور الدارجة . واما معجزات الانجيل

فسوف ترى في ما ياتي

ان لها مثل هذه

الشهادة